دراسات فى
تاريخ الحياة الإسلامية
(رؤية حضارية)

د. عبد الحليم عويس







الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - مارس ٢٠٠٩م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٨ - ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٢٥٦٥٩٣٩
المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٣٩٣٨٠٧١ - ٢٣٩١٣٠٧٢
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >





دراسات فى تاريخ الحياة الإسلامية

(رؤية حضارية)

د. عبد الحليم عويس
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية







البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

عويس، عبد الحليم.

دراسات فى تاريخ الحياة الإسلامية: (رؤية حضارية)/ عبد الحليم عويس.

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩م.

١٥٢ص؛ ١٧ × ٢٤سم.

تدمك 1- 69 - 6278 - 977 - 978

١ ـ التاريخ الإسلامى.

أ ـ العنوان. ٩٥٣

رقم الإيداع ٧٢٢٥ / ٢٠٠٩م

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 69 - 1



الفهـــرس



إهـــداء

إلى معالى أستاذنا الكبير الشيخ عبد العزيز بن عبد الله السالم . . . المفكر والكاتب والوزير والمسؤول السعودى لعشرات السنين . .

الرجل الذى أحببتُه فى الله . . . وأحبه كل المخلصين لدينهم وحضارتهم ممن اقتربوا منه أو قرءوا له . . .

لقد كان دائمًا آية من آيات الله فى التواضع والزهد والارتفاع فوق كل المناصب .

لقد التقينا معًا على حب شيخنا الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالى . وكان من أعظم من رثوه . . . وعاشوا أوفياء له . . .

ولثلاثة عقود بقيتْ علاقتى به . . فكنتُ أثناء عملى فى المملكة وبعده أشعر برائحته العطرة ـ وأتحدث عنه على أنه الرجل الذى عاش مثاليًا فوق البترول فى عصر البترول . . . وآثر الحياة المتواضعة بعيداً عن كل مظاهر الترف .

* * *

فإليه . . . تقديراً لعلاقة روحية أعتزُّ بها وأتفيأ ظلال سموها . . .

أكتب هذا الإهداء . . . سائلاً الله أن يحفظه للمملكة والعروبة والإسلام .

محبه

د. عبدالحليم عويس

القاهرة : فى غرة المحرم ١٤٣٠هـ




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
الطريف
NEW & EXCLUSIVE

مقدمة

حمدًا لله وشكرًا له؛ على آلائه ونعمه . . .

ومهما تكن الظروف التى تحيط بأمتنا منذ قرون؛ سواء كانت خارجية أو داخلية، فإنَّ النظر الفاحص؛ يدرك أن مسيرة حضارتنا تتقدم يومًا بعد يوم.

لقد كلَّتْ عقول أعدائنا؛ من التخطيط المدمِّر لنا، ولقد نجحوا فى إيلامنا والنيل منا؛ لكنْ كثيرًا ما رجع كيدهم عليهم وبالاً، بعد أن أنفقوا الأموال والأوقات، وَصَدَقَ اللهُ ـ سبحانه ـ إذْ يقول: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ [فاطر: ٤٣].

ـ ولقد كلَّت سواعد أعدائنا؛ من ضربنا بأحدث الأسلحة، سواء فى فلسطين، أو فى العراق، أو فى أفغانستان، أو فى لبنان . . .

ـ وقد أنفقوا من دمائهم، ومن أموالهم، الكثير . . . وصبرنا وصمدنا . . . وأصبح جليًا؛ أن القوى المستكبرة فى الأرض فشلت فى الصدّ عن سبيل الله . . . وحق عليها غضب الله فى الدنيا والآخرة، وكذلك غضب الإنسانية واستنكارها . . . وصدق فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

* * *

ـ ومع هذه الظروف الخارجية؛ التى لم تعدم أن تجد عونًا قويًا من قوى الارتداد الداخلى، الممثلة فى اللادينيين والشيوعيين والحداثيين؛ الذين ترتبط

قواعد مفاهيمهم الفكرية، بقلاع الفكر الاستشراقى والتغريبى . . . مع هذه الظروف؛ فإن مسيرة تقدمنا فى ازدهار كمّى وكيفى . . . ولعلَّ أعداءنا يدركون هذا أكثر منا . . . فعقيدة التوحيد الصحيحة (نقلاً) والمقبولة (عقلاً) تكتسح العقائد الوثنية؛ التى تعدد الآلهة والأقانيم . . . وشريعة التسامح الصالحة لكل زمان ومكان؛ تثبت جدارتها - وحدها - بصياغة حياة الناس؛ لأنها - وحدها - التى تهدى للّتى هى أقوم، ولأنها ليست اختراع عقول متحيّزة عنصرية، أو أخرى محدودة بالزمان والتراب والخلفية الثقافية؛ بل هى صادرة من الله خالق الإنسان والكون؛ الذى يعلم الظاهر والباطن من الإنسان: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]، وبالتالى يشرع له التشريع المنسجم مع فطرته . . . وها هى البشرية - بعيداً عن شريعة الله - تصل إلى نهاية الطريق المسدود؛ حين تعقد مؤتمرات مشبوهة، تحت اسم الحريات الشخصية تنتهى فيها إلى إقرار زواج الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى (الزواج المثلى)، وهو المستوى الذى لم تصل إلى دركه الحيوانات، إنه . . . مستوى «أسفل سافلين».

* * *

- فلا طريق أمام الإنسانية - كما نرى - ولا أمام المسلمين - من باب أولى - إلا طريق الإسلام . . .

وها هى مسيرة التاريخ وقوانينه؛ التى يجب أن يقرأها المسلمون كما ينبغى أن تقرأ، تُثبتُ ذلك . . .

ولقد أصبح واجبًا علينا أن نعيد قراءة كتاب ربنا، وسُنَّة نبيّه (عليه السلام)، وحركة تاريخنا الإسلامى . . . بل وحركة التاريخ الإنسانى؛ فى ضوء علم السنن الربانية، وتفسير التاريخ؛ تفسيراً إسلاميّا، منطلقًا من حديث القرآن، المستفيض عن قصص الأنبياء، وقصص الأمم السابقة، بدءاً من موقف إبليس من آدم، وتفضيل الله لآدم عليه السلام . . لأنه أعطاه العلم والإرادة: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة: ٣١] . . وصولاً إلى ما نفقهه من سيرة محمد خاتم الأنبياء ﷺ التى قدَّمت لنا دروسًا فى التعامل مع كل ظروف الحياة، بمثالية وواقعية فى سياق واحد . .



ـ لقد عمد كثيرون إلى تقديم رؤى منحرفة؛ فى تفسير تاريخنا الإسلامى، ووقفوا فى رؤية حركة تاريخنا؛ عند مستوى الحياة السياسية والعسكرية، وأغفلوا عن عمد ـ أو جهل ـ شتى مستويات الحياة؛ التى صنعتها الحياة الاجتماعية، والاقتصادية الإسلامية، أو بإيجاز حركة (صناعة الحضارة) بواسطة الأمة؛ التى اصطفاها الله، وجعلها خير أمة . . .

وتأتى هذه البحوث ـ فى هذا الكتاب ـ لتقدم صوراً من جوانب حركة حضارتنا؛ التى ظلمها الجاهلون والمتآمرون.

ومن هذه الرؤى المتكاملة؛ سوف ندرك عظمة هذه الحضارة . . ومستويات عطائها العقلى والقيمى والإنسانى؛ عبر عشرة قرون أو أكثر . . ومن ثم نتقدم خطوة فى إزالة الأتربة والمظالم؛ التى وقعت على هذا التاريخ . .

ومع ذلك لا يجوز لنا أن ننسى أنه تاريخ بشر يعتورهم الضعف والنقص، ويبذلون المحاولات للوصول إلى الحق فيصيبون ويخطئون؛ لكنهم يرتبطون بثوابت . . . ويؤمنون بأن تاريخهم العظيم ليس تاريخ ملائكة أو معصومين، وإنما هو تاريخ أفضل البشر . . ومن الله التوفيق والسداد.











نهر التاريخ ... رؤية إسلامية

تاريخ البشرية ماض وحاضر واستشراف للمستقبل . . . والتخوم الفاصلة بين هذه الأدوار تكاد تكون ذائبة ، والماضى يعيش فينا ولا نستطيع إنكاره ، والمستقبل فينا كالماضى سواء بسواء . . . إنها أضلاع الزمان الثلاثة التى لا تنفصل . . .

وعندما يتم الضغط على الماضى وحده تصاب الأمة بمرض الغياب التاريخى . . . كما أن الضغط على الحاضر - دون وعى بالماضى والمستقبل - غياب عن الذات ، ومغامرة بالحضارة كلها ؛ فى رحلة ضياع لسفينة بعدت عن معالمها ومرافئها الثابتة . . . !!

* * *

كل الأحجار فى التاريخ شواهد ناطقة تحكى قصة قوم كانوا هنا وصنعوا شيئًا . . . ولم توجد بعد أحجار صامتة . . ومن العبث أن نحاول إخراس أصوات الماضى التى تخاطب عقولنا ووعينا التاريخى الفطرى الذى يقول لنا : إننا جنس خاص . . إنسان تاريخى . . كائن يموت أفراده ، وتموت بعض شرائحه . . . لكنه باق إلى اللحظة الحاسمة . . . القارعة !!

* * *

فى أحقاب متفاوتة من التاريخ الإنسانى وضعت العناية الإلهية شارات ثابتة تأخذ بيد كل حضارة تريد الإقلاع من جديد نحو الإنسانية النقية . . .

قدم لنا أبونا آدم أول شارة حين أخطأ وتاب . . . فإدراك الخطيئة والإقلاع عنها خاصة إنسانية متفردة . . .





وقـدم هـابيل الشـارة الثـانيـة حـين رفض أن يكون القـاتل ورضى أن يكون المقتول . . . فى سبيل المبدأ . . .

وقدم كل نبى شارة أخرى هى خلاصة حياته ودعوته . . . . إن هذه الشارات التى بدأت بآدم ثم نوح ، وإبراهيم . . . وانتهت بمحمد (عليهم السلام) هى معالم الهدى فى التاريخ . . . وكلها ذات جوهر واحد ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [نوح : ٣]، والخلاف بينها فى التفاصيل الملائمة لحياة الإنسان عبر التاريخ . . .

* والانحـراف فى تاريخ الإنسـانيـة جـاء من ابتـعـادها عن هؤلاء الهـداة العظماء . . . إنها اصطرعت بعيداً عنهم . . . وتصارعت باسمهم بعيداً عن الحوار الباحث عن الحق . . . ودفعت أجيالاً كاملة لرفضهم . . . واخترعت النظريات ضدهم . . .

ولن يعود التاريخ إنسانيًا إلا إذا انصهر العقل فى بوتقة الإنسانية ، ليكون عقل إنسان . . . لا عقل شيطان !!

أجل : إن فى تيار التاريخ تصاميم سابقة وثابتة . . . لكنها لا تحول - ولم تحل - دون الإبداع . . . إنها معالم ثابتة دائمًا حتى لا تتوه الإنسانية فى الصحراء!!

فى نهر التاريخ يتدفق الماضى موصولاً بالحاضر والمستقبل . . . وتظهر القداسة فى بعض العصور كما تظهر النجوم العالية التى يسترشد بها الملاحون فى الليالى الطويلة المظلمة . . . فليست البشرية بمجموعها مقدسة ، كما أن هذه الإنسانية ليست مجموعة حيوانات مفترسة . . . إنها هذا وذاك . . . إنها أصلاً . . . «فى أحسن تقويم» . . لكنها فى أكثر مراحل التاريخ : فى «أسفل سافلين» . . . وستتبادل البشرية هذه الأدوار المتعاقبة إلى يوم القيامة . . .

وعندما يتآمر بعض المنسوبين إلى الإنسانية فيحاولون تحطيم فترات القداسة والمثال ، فإنهم يسعون - بوعى أو بغير وعى - لقيادة الإنسانية إلى نسبية كاملة ، وإلى ليل طويل معتم ؛ لا نجوم فيه (!!) وستغرق السفينة لا محالة . . . فالعقل والبصر لا يغنيان عن إشارات البصيرة الثابتة ، وكواكب الحقيقة !!



* كانت البشرية لا شيء . . . عدمًا لا ذكر له . . . أحيتها العناية الإلهية . . . وسوف تميتها بعد سلسلة حضارات متصارعة . . . ثم تحييها ليوم الحساب الأخير . . . فهكذا كانت لها بداية . . . وكان لها سياق وجود حي هو : هذا التاريخ وهذه الحضارات . . ثم سيكون لها رجعة إلى الله للحساب النهائي ! !

لا استمرار أبدي . . . بل هي رحلة مغلقة . . . لها بداية ونهاية . . . بطلها الإنسانية . . . ولن تكون هذه الرحلة عبثًا باطلاً . . .

فالعناية الإلهية لا تخلق للَّهو ولا للَّعب . . . وحاشاها . . . إنها أعظم من أن تجعلنا دمى ، أو قطع شطرنج . . . إن لنا وجودًا بقدر مسؤوليتنا . . . إننا مكلفون بمهمة خالدة . . .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٦ ـ ١٨] . والحق «رسالة الأنبياء» . . . حداة القافلة الإنسانية وهداتها . . .

وفي النهاية تنتهي فصول الكتاب والملحمة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

فالغاية الإنسانية محتومة . . . والمصير محكوم بأعمال الناس ، وبفاعلية الإنسان الإيجابية الصالحة في التاريخ . . . ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء : ٩٤] ، لكن إذا انتهت دورة تاريخية وأغلق الستار ؛ فمحال أن يعود أصحابها قبل يوم البعث : ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٥] .

إنهم مسؤولون . . . لقد كانوا أحرارًا ، وكانت لديهم شارات الطريق وشروط الصلاحية ومؤهلات البقاء . . . لكنهم صدفوا عن كل ذلك واعتمدوا على أبصارهم المحدودة ؛ وعقولهم المكبلة بإطار وعي الزمان والمكان ، وخبرة الجيل الواحد . . . فاستحقوا الموت . . .

لقد استمرءوا أن يكونوا مستهلكين في التاريخ . . . مجرد موضوع من موضوعاته . . . ولم يرتفعوا إلى مستوى خلافة الله في صناعة الحضارة ، وعمارة



العالم، وتسخير كونه . . . لقد عاشوا فى دائرة الذات والمطالب الجسدية ، ولم يهتموا بالمطالب الروحية ، ولا بغايات الوجود . . .

* * *

نعم : إن نهر الزمان متدفق موصول لا تكاد تنفصل فيه لحظات الماضى عن لحظات الحاضر عن المستقبل ، لكن ذلك لا يعنى أن الزمان لا يمكن تقسيمه إلى ماض وحاضر ومستقبل ، وأن هذا التقسيم له وجود فى الواقع ؛ وهو وجود شعورٍ ووعى وحياة . . . والغاية داخلية وخارجية معًا ، فكل كائن حى له غاية خاصة به تتعاون جميع أجزائه من أجل تحقيقها . . إنها غايته الداخلية التى تنسجم مع الغاية الخارجية ؛ التى تربط كل غاية داخلية بالغاية الخارجية العامة ؛ وهى تحريك أجزاء الكائنات نحو مصير واحد ، يتم فيه الوصول إلى يوم السعادة الأبدية أو الشقاء الأبدى أو الفناء الأبدى .

إن وجود يوم ينتهى فيه التاريخ البشرى ويتم فيه الحساب العام حقيقة لا بد من التسليم بها ؛ فإن القول بأن التاريخ البشرى ـ الذى له بداية يعترف بها الجميع ـ ليس له نهاية ؛ هو أمر لا ينسجم ومنطق العقل ، ولا الدين كله . . . إنه يفقد التاريخ معناه ، ويجعله بلا معنى ، والفرق بين التصور اللاهوتى (اليهودى والمسيحى) للغائية التاريخية ، وبين التصور الإسلامى . . . أن الغائية فى التصور الإسلامى لا تقفز فوق مؤهلات الدنيا ، ولا تختزل الدنيا بكل ما تتطلبه من معقولية وإيجابية اعتماداً على الغاية النهائية . . . إنها تبتعد إلى الآخرة عن طريق الدنيا ، وبقدر الإيجابية فى الدنيا ـ مع استقامة الوسائل ، وشرف الغايات ـ تكون الدرجة فى الآخرة .

إن الفلاسفة العقليين فى عصر التنوير (الأوروبى) قد حاولوا علاج الخلل فى التصور اللاهوتى للغائية ؛ لكنهم سقطوا فى حفرة أعمق فجعلوا الغاية دنيوية بحتة . . . إنهم قد يكونون معذورين . . . فاللاهوت المسيحى يسىء إلى الدنيا إساءة بالغة ، ويجعلها صفراً فى الرحلة إلى الخلود . . . بينما هى الطريقُ . . إنه يقول : اهجر الدنيا ؛ تضمن الآخرة ، وازهد فى الطيبات . . . ولا تعمر . . .



ودع ما لقيصر لقيصر . . . وحسبك أن تؤمن بالمخلص الذى انتحر [1] من أجلك . . . أما التصور الإسلامى فيدعوك إلى المشاركة الكاملة فى الدنيا تعميراً وأكلاً من الطيبات ، ومقاومة للباطل ، وصناعة لمؤسسات الحق ، ونشراً للخير والمنفعة . . . وأنت عندما تموت فى هذا الطريق تكون قد عبرت الدنيا عبوراً كريمًا ، وأديت واجبك بهذا الحضور الدنيوى المكثف . . . وإياك والغياب عن الدنيا وتركها للباطل يمرح فيها ، وإياك أيضًا أن تجعل أهدافها - مثل الفلاسفة العقليين - دنيوية بحتة . . . إن عناية الله توجه التاريخ البشرى وترعاه ، وتقوده ليوم لا ريب فيه ، لكن ذلك لا يتم على حسابك أيها «الإنسان» . . . أيها الفاعل والصانع للتاريخ والحضارة - برعاية الله . . . إنك مسؤول مسؤولية كاملة . . . وعلى قدر مسؤوليتك تحاسب ، وعناية الله تعفيك من الحساب عن الكوارث الطبيعية ، وعن كل ما هو فوق طاقتك ! !

إن حركة التاريخ أمامنا قد تصيبنا بنوع من الضبابية فى الرؤية ، وقد يخيل إلينا - فى بعض اللحظات - أن الغاية غير معقولة ، لكن عدم إدراكنا لمعقوليتها لا يعنى عدم وجودها ، فعقولنا المجزأة ، والتى تعمل بطريقة محكومة بالبيئة وبمؤثراتنا الذاتية لا تقوى على رؤية المعقول الكلى . . .

لنتذكر هنا قصة موسى والخضر عليهما السلام .

إنَّ «كانط» شعر بهذه الأزمة وتساءل : «إن أحداً لا يستطيع تجنب شعور معين بالامتعاض ، عندما يلاحظ أفعال الناس التى تعرض على المسرح الكبير للعالم ؛ فالأفراد يظهرون الحكمة هنا وهناك ، ولكن نسيج التاريخ الإنسانى - ككل - يبدو أنه منسوج من الحماقة ، وتفاهة الأطفال ، وغالبًا من الآثام الطفيلية ، وحب الدمار . ونتيجة ذلك فإننا فى النهاية حائرون فى معرفة ما هى الفكرة التى نصوغها عن نوعنا الذى نشعر بفخر عظيم بمميزاته» [2] .

---

(١) التصور المسيحى يرى أن المسيح عليه السلام قبل أن يقتل طواعية من أجل التكفير عن خطيئة أبينا آدم وخطايا أبنائه، وكان يستطيع - كابن لله - أن ينقذ نفسه ، أى أنه - بإيجاز - انتحر ، والإسلام يرفض عملية القتل أصلاً ، ويرى أن الله أنقذه من أيدى اليهود ، ورفعه إليه ، كما أنه يرفض الانتحار ! !

(٢) و . هـ . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدى ، مؤسسة سجل العرب ، مصر ١٩٦٢م، ص: ١٦٦ .

لكنَّ «كانط» لا يلبث أن يجيب عن هذا اعتماداً على فكرته المعروفة فى فلسفة التاريخ ، وهى فكرة «التقدم» . فهو يرى «أننا إذا اكتفينا فعلاً بالنظر إلى الأحداث التاريخية من وجهة نظر الأفراد المعنيين فقط فلن يصادفنا هناك سوى جمع مضطرب من الوقائع غير المرتبطة ، والتى لا تعنى شيئًا فى ظاهرها» .

ولكن الأمر قد يختلف إذا حولنا انتباهنا إلى أحداث النوع الإنسانى بأسره ؛ بدلاً من أحداث الفرد . فإن ما يبدو من وجهة نظر الفرد فوضى وبلا قانون قد يبدو بالرغم من ذلك ذا نظام ومتعقلاً إذا نظر إليه من وجهة نظر الأنواع .

والوقائع التى بدت فيما مضى بلا قيمة تبدو وكأنها تخدم هدفًا أكبر ؛ فقبل كل شىء : إنه من الممكن أن يتبع التاريخ كما فى الطبيعة ، أو العناية الإلهية (يستخدم كانط الكلمتين بمعنى واحد) خطة طويلة المدى غايتها البعيدة هى الأنواع الإنسانية ككل ، وقد يكون ذلك بتضحية بخير ومنفعة الفرد[1] .

ويلتقى مع «كانط» فى فكرة «التقدم المطرد» كثير من فلاسفة التاريخ فى عصر التنوير ؛ فقد أشار «أكتون» إلى أن التاريخ (علم تقدمى) وقال : إننا مرغمون على افتراض أن التقدم فى الأمور الإنسانية هو الفرض العلمى الذى يكتب التاريخ وفقًا له[2] . وكان المؤرخ جيبون - أبرز مؤرخى عصر التنوير - من المتحمسين لفكرة التقدم المطرد لدرجة أنه زعم (بأن كل عصر فى العالم قد أضاف وما زال يضيف إلى الثروة الحقيقية للسلامة الإنسانية وسعادتها ومعرفتها ، وربما فضيلتها)[3] ، وقد سمى زعمه هذا (النتيجة السازة الخاصة) ، ومن الغريب أنه كتب هذه النتيجة فى كتابه المعروف عن انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، (الفصل الثامن والثلاثين) . . لكن فكرة التقدم المطرد سرعان ما انهارت على يد فلاسفة تاريخ القرن العشرين وعلى رأسهم شبنجلر ، وتوينبى .

وعلى الرغم من وجود بعض العناصر اللاهوتية فى فلسفة توينبى ، ومن بعض تفاؤله الحذر بمستقبل للمسيحية . . إلا أن الفكر اللاهوتى كان أمره قد

---

(١) وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ١٦٧ .

(٢) إدوارد كار : ما هو التاريخ ، ترجمة أحمد حمدى ، نشر مؤسسة سجل العرب ١٩٦٢ ، ص : ١٤٤ .

(٣) إدوارد كار : المرجع السابق ، ص : ١٤٣ .

انتهى ، ولم يعد يحظى إلا بقليل من التقدير ؛ ذلك لأن إلغاء دور الإنسان الأساسى فى صناعة التاريخ أمر لا يمكن قبوله ، كما أن القول بأن حوادث التاريخ تخضع لقدرة ربانية ؛ لا تترك للإنسان دوراً يوازى مسؤوليته هو أمر مرفوض أيضا ؛ بل إن هذا الفكر اللاهوتى الذى يسميه الفيلسوف والمؤرخ «غوستاف لوبون» اعتقاداً صبيانيّا [1] قد أساء إلى التصور الإسلامى لفلسفة التاريخ ؛ لأن كثيراً من الأوروپيين وتلامذتهم الشرقيين لم يحاولوا دراسة الإسلام دراسة مستقلة بعيدة عن الفكر اللاهوتى العام .

ولم يكن خطأ الفكر اللاهوتى فى إغفاله الدور الأساسى للإنسان فحسب . . بل أيضًا فى إغفاله للسنن الكونية والاجتماعية التى تخضع لها جميع حوادث التاريخ . والإسلام هو وحده التصور الذى جمع بين وجود «الغاية» للتاريخ ، ووجود «معنى» لكل وقائعه إن ظاهراً أو باطنًا ، وإن عاجلاً أو آجلاً ، ووجود «عناية إلهية» ووجود دور أساسى «للإنسان» وخضوع الإنسان والطبيعة لسنن كونية ، . . . هذه الأبعاد هى أضلاع لمعادلة متكاملة متوازنة تحكم حركة التاريخ ، وتحقق للإنسان القدر المنطقى من الحرية الذى يتوازى مع قدراته وإمكاناته الزمانية والمكانية . . . وليس بينها أى تناقض كما يتصور الفكر اللاهوتى أو المفكرون العقليون ! !

* * *

إن الفكر العلمانى التنويرى كان منفعلاً فى مواجهة الفكر اللاهوتى ، وكان - بالتالى - معبراً عن (أزمة روحية) وهو يقرر - كما يقول برجسون «إن من العبث أن يحاول الإنسان أن يعين للحياة غاية ، بالمعنى الإنسانى لهذه الكلمة . فإن الغاية - بهذا المعنى - معناها وجود نموذج من قبل لا يعوزه إلا أن يتحقق بالفعل ، أى أننا نفترض - حينئذ - فى الواقع أن كل شىء موجود دفعة واحدة ، وأن المستقبل يمكن أن يقرأ فى الحاضر . . . بينما الحياة تقدم وتتابع واستمرار» [2] . . . . ولم

(١) فلسفة التاريخ : ترجمة عادل زعيتر ، نشر دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤م ، ص : ٥٧ .
(٢) عبد الرحمن بدوى : شبنجلر : ٢٣ ، نشر مكتبة النهضة بمصر ١٩٤١م .

يتساءل هذا المفكر : إلى متى سيظل هذا التتابع والاستمرار ؟ إن أمامنا كثيراً من الحضارات قد اندثرت أو تحولت إلى ذرات فى جسم حضارات أخرى ؛ بعد أن ابتلعتها فى أحشائها وحولتها إلى جزء منها ، ويوما ما ستصل الحضارة الغربية إلى ساعة الأفول ، أو الانتحار ، أو الامتلاء ، لدرجة الموت ؛ وقد تقوم حضارة أخرى أكثر روحانية وإنسانية وتوازنية . . . لكن التسلسل والدور لا يمكن أن يستمرا متتابعين دون نهاية ، فوجود الزمان المطلق المتحرر المجرد ـ يمثل معنى شعريًا ـ أكثر منه معنى واقعيًا . . . !!

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧] .







تفسير التاريخ : مطلب إنسانى تخلف فيه المسلمون

منذ خمسة قرون، والبحث عن المنهج التاريخى الأصلح لكتابة التاريخ الإنسانى، وتفسير التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين فى العالم مكانة عظيمة، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا.

ويعتبر العالم الإسلامى - للأسف الشديد - نشازاً فى هذا البحث اللاهث، فما زال البحث التاريخى لا يهتم - إلا فى القليل - بقضيتى منهج البحث التاريخى وفلسفة التاريخ.

والنظر إلى قائمة الأطروحات العلمية التى قدمت فى جامعات العالم الإسلامى فى أقسام التاريخ والحضارة - بالإضافة إلى بحوث المؤرخين والمفكرين - يؤكد هذه الحقيقة !!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمق، بعد أن بطلت مقولة إقامة السور الحديدى الفكرى بيننا وبين العالم الأوروبى ؛ لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه ؛ ففضلاً على عبثية هذه المقولة فى ظل الأساليب الحضارية المعاصرة، فإنها أيضًا مقولة لا تخدمنا، حتى ولو نجحنا فى تطبيقها !!

إننا لا بد أن نبحث فى بنائنا الداخلى، وفى تطوير كياننا، وفى البحث عن وسائل القوة فى داخلنا ومن خارجنا، وفى فقه سنن الله الكونية والاجتماعية فى التطور والبقاء، ولا سبيل لبقائنا فى هذا العالم إلا عن هذا الطريق.

إن تشريحًا قويًا يجب أن نقوم به - بإخلاص وجرأة - لتجربتنا فى التاريخ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا فى الاعتراف بالحقيقة كما هى، وفى تقويم



هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهية التى نؤمن بأنها (المطلق) و (المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية .

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكنًا كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره، إن المنهج العلمى لكتابة التاريخ يُحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلاً)، وقبولها دراية (عقلا) .

وقد أصبح فقه البيئة الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة والحكم عليها . . . ومهما يكن لتفسير التاريخ من كيان مستقل فإن أجزاء كثيرة منه ـ على الأقل فى معطياته الأولى ـ ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تنفصل عنها . . .

إن هذه مسلمة قرآنية أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلاً ! !

توظيف المنهج التاريخى وفلسفة التاريخ

كان أول عمل للمؤرخين المسيحيين هو وضع خلفية تاريخية رائعة للعقيدة المسيحية، وتدعيم أهمية التاريخ المقدس وعلاقته، وهم يعنون به (التاريخ اليهودى والمسيحى معًا)، وبذلك غدا التطور التاريخى لليهودية والمسيحية هو المحور الرئيس فى تاريخ الماضى بأسره، بينما وصفت الأحداث التاريخية التى دونتها سجلات الأمم الوثنية فى صورة عرضية ثانوية[1] ، ولما جاءت الحركة الإنسانية وظهر تأثيرها العام على الكتابة التاريخية بدأ الاهتمام يتجدد بالأدب الوثنى، والتاريخ الوثنى، هذا إلى أن الحركة الإنسانية كان لها أثر هائل فى تضاؤل عنصر المعجزات فى عملية تفسير أحداث (التاريخ) فضلاً على تضاؤل (الآثار العاطفية) (للملحمة المسيحية)، ومع ذلك لا ينبغى أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين، أو المتشككين فى الديانة المسيحية وإنما الغالب أنهم تجاهلوا ـ ولم ينكروا ـ مزاعم اللاهوت والجدل الدينى، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى تأثير النزعة الكاثوليكية .

(١) هارى المربارنز ، ترجمة محمد عبد الرحمن برج : تاريخ الكتابة التاريخية ١/ ٧٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٤م .

وهكذا قدر للتاريخ الوثنى أن يستعيد ـ إلى حد ما ـ مكانته البارزة التى فقدها على أيدى الكُتَّاب المسيحيين بصفة عامة [١] .

وكان ظهور «مارتن لوثر» عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ، بل إن حركة الإصلاح الدينى بقيادة (كالفن) و (لوثر) أعطت الجهد البشرى فى تفسير التاريخ تقديراً أقل مما أعطته الكنيسة فى سالف عهدها، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية، والمنظمات التابعة لها هى صاحبة المقام الأكبر والأول فى مقام البحث التاريخى، بل إن التاريخ العالمى صُوِّرَ مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان [٢] .

«وغنى عن القول أن إحياء النزعة الدينية فى مجال الاهتمامات التاريخية كانت ضربة قاصمة للموضوعية الخالصة التى لمسناها فى كتابات بعض المؤرخين أمثال «جويكوردينى»؛ بقدر ما كانت بالغة الضرر بالنسبة للحفاظ على الاتجاه الدنيوى فى كتابة التاريخ؛ وهو الاتجاه الذى كانت تمثله المدرسة الفلورنسية. كذلك ترتب على إحياء تلك النزعة ضعف الاعتقاد بأن دراسة التاريخ تتم بدافع من حب الاستزادة من المعرفة وزيادة حصيلة المعلومات عن الماضى، وهو الأمر الذى أضنى «بولبيوس» نفسه من أجله، ذلك لأن التاريخ فى تلك الظروف الجديدة أصبح أداة عملية معرفية تأويلية متعصبة بدرجة لا تقل عنفاً عما كان عليه أيام القديس «أوغسطين» وتلاميذه : وبعبارة أخرى فإن النظرة إلى الماضى فى ذلك العصر جعلت (ترسانة) شاسعة ومتنوعة يستمد فيها الفريقان المتخاصمان أسلحة وذخيرة لا حدود لها لاستخدامها فى تشويه صورة خصومهم. كذلك ظهر هناك تجاهل خفيف لمبادئ النقد التى أحياها خيرة كتاب المدرسة الإنسانية؛ وذلك أن أتباع كل مذهب من المذاهب الدينية كان يحاول أن يجد فى الماضى ما يؤيد وجهة نظره، بينما يبذل جهده فى أن يظهر معارضيه فى أقبح صورة» [٣] .

---

(١) المرجع السابق، ص : ١٤٦ .
(٢) المرجع السابق، ص : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٣) المرجع السابق، ص : ١٧٦ .

وخلال القرنين - التاسع عشر ومطلع العشرين - لمعت أسماء من أمثال (فردريك شبلنج ت ١٨٤٥م) الذى كان متأثراً إلى حد كبير بآراء فيخته (الذى كان مؤمنًا إيمانًا شديداً بتفوق الجنس الألمانى)، ثم (فردريك شليجل ت ١٨٢٩م)، مع تركيز على العامل الدينى الكاثوليكى، ثم - فى نهاية هذه المرحلة - ظهر (ويلهلم هيجل) الذى كانت الدوافع القومية واضحة وراء فلسفته بطريقة تتضح أكثر من فيخته، فقد صرح (هيجل) فى فلسفته بأن الألمان قد عهد الله إليهم بمهمة إيصال نعمة الحرية إلى الجنس البشرى[1].

وقد ظهرت إلى جانب ذلك مدارس فرنسية وإيطالية وإنجليزية وبلجيكية وأمريكية فى تفسير التاريخ (فيكتور كوزين ت ١٣٦٧م فرنسى، ثيودور جوفروى ت ١٨٤٢م فرنسى، تيرجو الذى سبق كونت فى تقسيمه الشهير للتقدم على ثلاث مراحل : اللاهوتية، والميتافيزيقية، والعلمية)، (وفيليب بوشير ت ١٨٦٦م فرنسى، ثم أوجست كونت ت ١٨٥٧م، فرانسوا لورنت ١٨٨٧م بلجيكى، قيصر بالبو ت ١٨٥٣م إيطالى، فيرارى ت ١٨٧٦م إيطالى، وهربرت سبنسر ت ١٩٠٣م إنجليزى، وهنرى باكل ت ١٨٦٢م ؛ صاحب كتاب تاريخ الحضارة فى إنجلترا، إنجليزى، وروبرت فيلنت ١٩١٠م إنجليزى، وهوايت، وهاريس، ورويس، وفيزيك الأمريكان، الذين كانوا عالة على المدارس الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية).

أساسيات الرؤية الإسلامية للتاريخ

وفى ضوء هذا البحث الإنسانى الدؤوب عن تفسير إنسانى موضوعى للتاريخ يتبدى لنا أن من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولاً إلى بعض المفاتيح - وليس كل المفاتيح - لحركة التاريخ والكون.

وفى الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا - إنصافًا لرسالتهم وحضارتهم - بجهودهم فى مجال فلسفة كونية وتاريخية أصيلة ؛ تقوم على ركائز التصور الإسلامى الأساسى . . . إنه ليس حقهم فحسب، بل إنه واجبهم كذلك.

(١) المرجع السابق، ص : ٢٧٠ .



لقد أدلى النصارى بما لديهم . . . وهم - واليهود - يشكلون رؤية دينية للتاريخ ينقصها المشروع الحضارى والصلة الوثيقة بالواقع . . . وقد أفرز هذا التصور مادية مغرقة كانت رد فعل للاستغراق اللاهوتى ، وكلا التفسيرين أغفل عناصر أساسية ، ولم يستطع تصور النسيج الكامل والمحكم والمتوازن والمتشابك للعملية الحضارية . . . وكلاهما عمَّق الرؤية فى جانب على حساب الجوانب الأخرى ، وبالتالى فالتفسيران المثالى واللاهوتى عاجزان ! !

* والنظرة الإسلامية للتاريخ تتميز عن غيرها بأنها تؤمن بثبات الفطرة الإنسانية ، وثبات السنن الكونية التى تتحرك الأحداث فى داخلها وبمقتضاها . . .

فالرؤية الإسلامية تؤمن بأن الجانب المعرفى يتطور فى الإنسان ؛ ولكن مع بقاء عناصر ثابتة يتلقاها الإنسان عن الوحى ؛ ولا يستطيع إدراكها بعقله وحده . . .

* * *

* وقراءة التاريخ - من جانب آخر - لا تقتصر على حياة الحكام ، وأخبار الوقائع والحروب ؛ بل لا بد أن تصل إلى نسيج الحياة من خلال الدراسة الجادة للحياة الاجتماعية ، والفكرية ، والاقتصادية . . .

* والتصور الإسلامى يرى أن الجانب المعرفى ، والفكرى يتطور فى الإنسان مع حاجته إلى ضوابط وعناصر تكمله ؛ لأن هناك معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها من الوحى لا من العقل الذى هو - بطبيعة محدودية طاقته - عاجز عن إدراك تفصيلاتها . . . وثمة مسلمات فى الجانب المعرفى الكونى والاجتماعى يجب التسليم بها . . .

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعمل العقل فى مساحة واسعة : كونية واجتماعية ؛ يستطيع من خلالها تسخير الكون ؛ ومجالات العلوم ، والفنون ، والآداب ، وفقه النفس الإنسانية ، والطاقات الإنسانية المختلفة ، واستكشاف عظمة الله من خلال تدبر آلائه وآياته فى الكون والنفس ، ومن ثم استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية .



ومن الجدير بالذكر - وقبل الوصول إلى مرحلة استخلاص القوانين - ضرورة قراءة الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية قراءة فاحصة ؛ بل إن تركيز تفسير الحركة التاريخية يجب أن يتجه إلى قراءة الجوانب السالفة الذكر، والتى لم تأخذ حقها من التاريخ، مع أنها التاريخ الأجدر بالاهتمام . . . ومع أن أبطالها وقادتها هم صانعو الحضارة الحقيقيون .

والحق - عند النظر الفاحص - أن التاريخ السياسى، والعسكرى قد يشكل عبئًا على حركة الحضارة . . . فقليل من الحكام كان صالحًا، وقليل من المعارك كانت ذات فائدة، أو كانت موجهة دفاعًا عن المثل العليا أو لحماية الحق، وأكثر المعارك كانت لخدمة أطماع توسعية، أو لخلافات شخصية بين أمزجة الحكام، كما أنها كانت تتم بأساليب همجية لا يقرها الوحى الإلهى، ولا العقل الصحيح !!

إن تاريخنا ليس فردًا فى هذا المجال . . . فمعظم تواريخ العالم - إن لم يكن كلها - يشوبها سلوك معظم حكامها وعسكرييها : أباطرة كانوا، أو قياصرة، أو كياسرة، أو ملوكًا فراعنة . . . إن معظم هؤلاء كانوا كالديدان التى تعيش على أفضل ما فى الجسم وتقتله فى آن واحد .

فكيف يصبح هؤلاء محور الدراسة التاريخية والحضارية مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلب فيها . . . ؟!

وإن عظمة كثير من الحضارات - وعلى رأسها الحضارة الإسلامية - أنها بقيت بالرغم من الفساد الذى يجلبه هؤلاء !! إن التنظير الإسلامى الحضارى للتاريخ ضرورة للمسلمين وللإنسانية كلها . . . وهو - فى الوقت نفسه - حق للمسلمين، وواجب عليهم . . . وعندما نتجه - عمليًا وبصورة جماعية - للبحث فى أساسيات هذا التفسير، فإن علينا أن نعيد قراءة حولياتنا التاريخية وموسوعاتنا الحضارية، وكتب الفقه، والأدب، والرجال، والطبقات ؛ باذلين معظم الجهد فى التعرف على حياتنا الحضارية التى تقوم على الفكر والثقافة والعلم - أولاً - وعلى النشاط الاجتماعى - ثانيًا - والنشاط الاقتصادى - ثالثًا - والنشاط السياسى والعسكرى - رابعًا - !!



ومن الواجب أن نصهر كل هذه الفعاليات فى بوتقة واحدة ؛ لأن الفعل الحضارى يتأثر بالبيئة المعاشية كلها، مراعين فى الوقت نفسه النسبة المحددة لكل نشاط وأثره فى الحضارة، ومراعين ترتيب العناصر وفق أولويتها، والنسب المحددة لها.

* * *

ويتضح لنا كيف أننا ظلمنا تاريخنا الحضارى، وأعطينا الساسة والعسكريين أكثر من حقهم عندما نتأمل هذه العبارة التى كتبها أحد المفكرين وهو يتحدث عن الكنوز المنسية والمظلومة الموجودة فى تراثنا والتى أهملت بسبب طغيان الجانب السياسى والعسكرى . . .

يقول الكاتب :

«لو أنى بقيت خمسين سنة أحدث الناس كل أسبوع عن عَلَم من أعلام المسلمين، أو أعرض عليهم قصة من قصص بطولاتهم وعبقرياتهم لما انتهيت، ولما قاربت الانتهاء. . . وكيف؟ وعندى فى مكتبة بيتى الصغيرة أكثر من خمسين مجلداً فى تراجم الرجال، لو أن فى كل مجلد منها مائة ترجمة لكان فى ذلك وحده خمسة آلاف ترجمة، لخمسة آلاف عَلَم من أعلام الإسلام، وما ليس عندى من كتب التراجم أضعاف ذلك.

ثم إن فى كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلافًا أخرى لم تفرد فى كتب التراجم»(١).

إن صفحة من صفحات حضارتنا ـ ومثلها عشرات الصفحات ـ لم تكتب من منظور حضارى كما ينبغى أن تكتب. . إنها صفحة القضاء، والقضاة، هؤلاء الذين كانوا الحكام الاجتماعيين للشعب، وكان الحكام كثيراً ما يخضعون لهم. . . وعلى امتداد العصور الإسلامية، وقبل العصر الثورى المدمر اشتهر القضاة بالقوة، والعدل، والورع، وتطبيق الشريعة بلا مجاملة أو محاباة.

---

(١) الشيخ على الطنطاوى : قصص من التاريخ (المقدمة)، طبع بيروت.





كان محمد بن عمران قاضى مكة، فادعى لديه جمّال على أمير المؤمنين العباسى، أبى جعفر المنصور، فبعث إليه (مذكرة جلب) فجاء فى خف وطيلسان ما عليه من شارات الإمارة شىء، حتى وقفه بين يديه مع الجمال !!

وكان شريك قاضى الكوفة، وادعت لديه امرأة مجهولة على الأمير الخطير ابن عم الخليفة، وثانى رجل فى الدولة بعده عيسى بن موسى، فحكم عليه حكمًا غيابيًّا، فامتنع الأمير من إنفاذه وتوسل إليه بكاتبه، فحبس القاضى الكاتب ؛ لأنه مشى فى حاجة ظالم، فاستعان عليه بجماعة من وجوه العراقيين من إخوان القاضى، فساقهم جميعًا إلى الحبس، فغضب الأمير، وبعث من أخرجهم، عند ذلك ـ عصفت نخوة الشرع فى رأس القاضى، وأخذته عزة الإيمان فقال : «والله ما طلبنا هذا الأمر (يعنى المنصب)، ولكنهم أكرهونا عليه، وضمنوا لنا فيه الإعزاز إذا تقلدناه لهم». ثم ختم قمطره، وجمع سجلاته، واحتمل بأهله وتوجه نحو بغداد، ووقعت الرجفة بالكوفة لما علمت بخروج القاضى، حتى خاف الأمير على سلطانه، فلحق بالقاضى يناشده الله أن يرجع، فقال القاضى : «لا والله حتى يُرد أولئك إلى الحبس فما كنت لأحبس أنا وتطلق أنت»، فبعث الأمير أن يرجعهم إلى الحبس، والقاضى واقف ينتظر حتى جاءه الخبر بأنهم قد أرجعوا، فقال القاضى لغلامه : «خذ بلجام فرس الأمير وسقه أمامى إلى مجلس الحكم فى المسجد»، وهناك أجلسه بين يديه مع المرأة، فلما انتهت المحاكمة، وحكم لها عليه نهض فسلم عليه بالإمارة، وقال له : «هل تأمر بشىء ؟» فضحك الأمير، وقال : «بماذا آمر؟ وأى شىء بقى؟» قال له شريك : «أيها الأمير، ذاك حق الشرع، وهذا حق الأدب»، فقام الأمير، وهو يقول : من عظَّم أمر الله، أذل له عظماء خلقه !! [1].

وكان القضاة إذا عقدوا مجلسًا للقضاء، لا يفضلون صاحب قضية على آخر، بناء على مركز صاحبها، ومن أخبار القاضى (عمر بن عبد الله) أنه كان إذا جلس أمر من كانت عنده خصومة أن يكتب اسمه فى رقعة، ثم يجمع هذه الرقاع

(١) على الطنطاوى : فكر ومباحث، ص : ١٠٤ ـ ١٠٥، طبعة ٢ (١٤٠٨هـ) بيروت .





ويخلطها بين يديه، ويدعو بأصحابها الأول فالأول، حسبما تخرج يده من رقاع[1].

وقد وقف بين يدى المأمون وهو فى مجلس المظالم رجل يتظلم منه نفسه؛ فترادّا الكلام ساعة فما اتفقا، قال المأمون : فمن يحكم بيننا؟، قال : الحاكم الذى أقمته لرعيتك (يحيى بن أكثم)، فدعا به المأمون فقال له : اقض بيننا. قال : فى حكم وقضية (أى فى دعوى)؟ قال : نعم. قال القاضى : لا أفعل. فعجب المأمون، وقال: لماذا؟ قال يحيى : لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضاء، فإن كانت له دعوى فليأت مجلس الحكم (أى المحكمة). قال المأمون : قد جعلت دارى مجلسًا للقضاء. قال : إذن فإنى أبدأ بالعامة ليصح مجلس القضاء (وتكون المحاكمة علنية). قال المأمون : افعل. ففتح الباب، وقعد فى ناحية من الدار، وأذن للعامة، ونادى المحضر، وأخذت الرقاع (أوراق الدعوة والإعلان) ودُعى الخصوم على ترتيبهم حتى جاءت النوبة إلى المتظلم من المأمون، فقال له القاضى : ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين (المأمون)، فنادى المحضر : «عبد الله المأمون» !! فإذا المأمون قد خرج فى رداء وقميص وسراويل فى نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى، ويحيى جالس فقال للمأمون: اجلس!!. فطرح الغلام المصلى ليقعد عليه، فمنعه القاضى حتى جاء بمصلى مثله، فبسط للخصم وجلس عليه[2].

ولم يكن معظم القضاة يتجه للقضاء رغبة فى كسب المال أو المركز؛ وإنما كان اتجاههم للقضاء رغبة فيما عند الله من الأجر والثواب، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - القاضى (أحمد بن محمد بن خلف الملقب بأبى القاسم الحوفى الإشبيلى)، فقد كان يسترزق أثناء القضاء من عمل يده، وكان القاضى ابن سماك الهدانى عندما تولى القضاء يقوم بحاجته اليومية بنفسه، فكان يكسر الحطب على باب داره والناس من حوله يختصمون إليه ويسألونه[3].

---

(١) الخشنى : قضاة قرطبة، ص : ١٤٩، بيروت.

(٢) على الطنطاوى: فكر ومباحث، ٢/ ١٠٥، ١٠٦، طبعة ٢ (١٤٠٨هـ) بيروت.

(٣) الخشنى : قضاة قرطبة، ص : ٥٧.





ومن الوزراء يقدم لنا مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) نموذجًا للوزير العالم الزاهد فى الحكم وفى الدنيا، فقد خدم الأتابك عز الدين بن مودود وولده نور الدين أرسلان شاه فصار واحد دولته لدرجة أن نور الدين كان يقصد منزله ليستشيره عندما أقعد بسبب المرض فى آخر زمانه. وقد كاد طبيب مغربى أن يصل به إلى الشفاء من مرض النقرس، وأشرف على الشفاء الكامل؛ لكنه صرف الطبيب عن إتمام العلاج، وقال لأخيه عز الدين عندما عاتبه على طرد الطبيب الذى ظهر نجاحه: إننى فى راحة من صحبة هؤلاء القوم (يعنى الأمير والحاشية) وقد سكنت روحى إلى الانقطاع والدعة، وقد كنت بالأمس وأنا معافى أذل نفسى بالسعى إليهم، وها أنا اليوم قاعد فى منزلى فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاءونى بأنفسهم لأخذ رأيى، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته ولم يبق من العمر إلا القليل فدعنى أعِشْ حرًا سليمًا من الذل، وقد أخذت منه أوفر حظ.

وهكذا لزم الرجل بيته صابرًا محتسبًا يغشاه الأكابر والعلماء، وكان قد أنشأ رباطًا بقرية من قرى الموصل تسمى (قصر حرب) ووقف أملاكه عليه وعلى داره التى كان يسكنها بالموصل[1].

وقد عَمَّر علماؤنا الحياة بالعلم والعمل، وكانوا - مع ذلك - زاهدين فى الدنيا؛ زُهْد القادرين لا خضوع المستسلمين المنهزمين.. وقد جاء بعض من أرّخوا لهم فظلموهم وصوروهم وكأنهم صوفية متواكلون؛ يعيشون بلا عمل ويعتمدون فى حياتهم على الصدقات، مع أن الزهد بمعنى التوكل، والكسل لم يكن فى الزهاد المخلصين؛ وإنما اتسم به نفر من أدعياء التصوف من الجهلة والعوام...

كلا... فما كان صناع حضارتنا كذلك، وما فهموا الزهد إلا بمعنى الثراء والاستعلاء، وما فهموا العبادة إلا بمعناها الكونى الفسيح الذى يسخر الدنيا لراية التوحيد...

---

(١) د. محمود الطناحى: مقدمة تحقيق منال الطالب فى شرح طوال الغرائب لابن الأثير، طبع جامعة أم القرى ١٩٨٣م، ص: ١٦-١٨ بتصرف.



ولقد جرت محاورة بين اثنين من كبار الصالحين وضّحت هذا التصور الصحيح، فقد قال الفضيل بن عياض لعبد الله بن المبارك (رضى الله عنهما): أنت تأمرنا بالزهد ونراك تأتى بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، فكيف تأمرنا بشىء وتفعل خلافه؟. فقال له عبد الله بن المبارك: يا أبا على أنا أفعل هذا لأصون به وجهى، وأكرم به عرضى، وأستعين به على طاعة ربى... ولا أدرى لله حقّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به [1] !!

فالزهد أن تكون قادرًا غنيّا ثم تزهد وتعطى... لا أن تكون خاملاً فقيرًا تأكل من أوساخ الناس وصدقاتهم.

وكان الليث بن سعد فقيه مصر وعالمها الأكبر فى عصر هارون الرشيد، وكان مع ذلك من أثرى أثرياء عصره، وكان زاهدًا كريمًا... ويروى أن الخليفة (هارون الرشيد) بعث إلى الإمام مالك بن أنس بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب الرشيد وقال له: كيف تعطيه أكثر منى وأنت من رعيتى؟ فقال له الليث: إن لى من غلتى كل يوم ألف دينار فاستحييت أن أعطى مثل هذا الإمام أقل من دخل يوم [2] .

وقد ورد فى ترجمة الإمام أبى حنيفة النعمان أنه كان تاجر أقمشة مع شريك اسمه حفص فباع شريكه لأحد الزبائن ثوبًا فيه عيب، ولم يخبره بعيبه، ولم ينقص له الثمن، بل استوفى منه الثمن كاملاً، فلما علم أبو حنيفة بذلك، راح يبحث عن المشترى ويفتش عنه، وساعده شريكه فى البحث والتفتيش فلم يقفا له على أثر ولم يعثرا عليه، فعندئذ رفض أبو حنيفة أن يقبل ثمن الثوب ولم يضمه إلى ماله بل تصدق به كله، وفسخ الشركة مع شريكه احتياطًا لدينه.

وكان يونس بن عبد الجليل من كبار علماء العصر العباسى، وكان صاحب متجر لبيع الأقمشة والثياب، وقد رويت عنه قصص دالة على النهاية فى الورع، والروعة فى الإخلاص فى البيع والشراء [3] .

---

(١) نقلاً عن: ناجى الطنطاوى: كلمات نافعة، ص: ٢٢١، دار المنارة، جدة، سنة ١٤٠٨هـ.
(٢) المرجع السابق، ص: ٢٢٩ بتصرف.
(٣) المرجع السابق، ص: ٢٤١، ٢٤٢.





وكان كثير من القضاة والفقهاء والمحتسبين ذوى شجاعة وتدرب على فنون القتال، وقد ذكرت كتب الرجال كثيراً من هؤلاء ؛ نورد منهم هنا (الفرج بن كنانة) ؛ أحد كبار القضاة فى قرطبة الذين قادوا الجيش وجاهدوا مع المجاهدين، وقاموا فى الوقت نفسه بدور اجتماعى كريم. ومنهم أيضًا الفقيه القاضى المعروف (أسد بن الفرات) فى تونس.

ويعتبر الإمام ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ)، والإمام أبو محمد على بن حزم (٤٥٦هـ)، والإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ)، وغيرهم من أصحاب الموسوعات الكبرى والهمم العالية التى ندر وجود مثلها فى الحضارات فى عصور كانت تخلو من كثير من الوسائل المساعدة الحديثة . . . يعتبر هؤلاء ظاهرة تحتاج إلى رصد واستقصاء، ودراسة موضوعية لأسباب هذه العبقريات - كيفًا وكمّا - وأسباب هذا العطاء العملاق.

ويقول الطبرى عن نفسه : حفظت القرآن ولى سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع. وقد قسم ما ألفه الطبرى أيام عمره منذ ولد فكان أربع عشرة ورقة كل يوم!! وكان ابن حزم ثانى مؤلفى الإسلام، وقد ألف أكثر من أربعمائة كتاب ورسالة.

وتقع فتاوى الإمام ابن تيمية فى أكثر من خمسة عشر ألف صفحة، ويقع كتابه (درء تعارض العقل والنقل) فى أكثر من عشر أجزاء فى الطبعة المحققة، بالإضافة إلى عشرات الكتب الأخرى التى تصل إلى آلاف الصفحات ؛ فضلاً على جهاده المعروف ومعاركه ضد البدع والأهواء.

وقد كان علو الهمة وقوة الإرادة، والعمل الدؤوب شاغلهم الأشغل.

والإمام ابن الجوزى يقول عن نفسه : نظرت إلى علو همتى فرأيتها عجبًا وذلك أننى أروم نيل كل العلوم، وأروم نهاية العمل بالعلم مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق، وأروم الغنى عن الخلق ؛ والاشتغال بالعلم مانع من الكسب، وها أنا أحفظ أنفاسى من أن يضيع نفس فى غير فائدة[1].

---

(١) المرجع السابق، ص : ٢٦٠.





إن هؤلاء ـ وآلافًا مؤلفة غيرهم ـ هم الذين صنعوا حضارتنا، وهم الذين يقدمون لنا أبرز ملامح الرؤية الإسلامية للتاريخ !! (وليس الساسة أو العسكر)!!

* * *

وفى نهاية هذا الشوط يجب أن نكون واضحين فى موقفنا من أنفسنا، ومن الآخرين.. فهل نحن مجرد شريحة من شرائح الجنس البشرى لا تتميز بشىء، وهمها الأكبر أن تصل إلى التقدم والرفاهية، وبالتالى يمكننا ـ إذا كان ذلك ممكنًا ـ أن نحطم كل شىء فى سبيل هذا الهدف العاجل والظرفى، أو أننا شريحة من الجنس البشرى تمثل (قلب) هذا العالم (وضميره) وأن مهمتنا فى التاريخ أن نضم (العقل) إلى القلب والضمير بحيث نقدم صياغة حضارية تأخذ بما هو (معقول)، ومنتوج عقلى بحت من كل الحضارات، وتضم ذلك إلى (قلبها) و (ضميرها) فى نسيج متكامل متناغم؟!!

إنه لا بد من توضيح موقفنا إذا شئنا أن نقدم رؤية علمية تنتمى إلينا وإلى حضارتنا فى تفسير التاريخ... فإذا آمنا بأننا مجرد شريحة من الجسم البشرى لا خصوصية لها فما علينا إلا أن نمضى وراء المدرسة التى تحمل أسماءنا... لكن قلبها وضميرها قد ضاعا منها، وأصبحت (كُلاً) أوروبيا لا يتجزأ، حتى وإن ظلت تزعم بأنها مسلمة وتحتفظ بأسمائها العربية أو الإسلامية، ونموذج محمد أركون وتلميذه أحمد عبد المعطى حجازى، وعزيز العظمة، وماجد فخرى، وسعيد العشماوى، وحسين أحمد أمين وأمثالهم تناضل فى هذا الطريق، وتحاول أن تقضى على الثوابت والخصوصيات؛ بحيث تفقد الأمة فى معركة الحضارة كل سلاح تستلهمه من ثوابتها، ومن تراثها وحضارتها، وتركع سريعًا (لفقدانها جهاز المناعة) أمام الشرائح الحضارية الأخرى التى تكون ـ فى النهاية ـ الجسم البشرى !!







تاريخنا الإسلامى والطبيعة البشرية

فى كل التجارب التاريخية ثمة رصيد ثابت للطبيعة الإنسانية فى مستوياتها التعبيرية المختلفة . . .

إن الإنسان - وهو يعيش إنسانيته - ليس نسقًا واحدًا مضطردًا بطريقة آلية ؛ بل هو مزيج مركب من العناصر والتناقضات التى تجعله يعيش - إلى حد كبير - قدراً كبيراً من التوتر والصراع داخله بين القوى المختلفة . . . كما أنه - بهذا الكيان المركب - يواجه الحياة الخارجية التى تخضع - هى أيضًا - لنمطية متدافعة بين قوى الخير وقوى الشر . . .

فثمة توتر فى داخل الإنسان، وثمة تدافع بين الإنسان ونوعية الحضارة التى يبدعها الإنسان . . .

ومن البدهيات أن هذا التوتر - فى الداخل أو مع الخارج - هو نفسه الطريق لإبداع الحضارة . . . إذ السكون المطلق هو الطريق الطبيعى للجمود والموت . . .

وكل ما تصنعه المبادئ الرفيعة فى رحلة التاريخ - وعلى رأسها الإسلام - أنها تجعل الإيقاعات المتنافرة متناغمة ، وأنها تحُول دون أن تقضى الشوائب والسلبيات على نهر الحياة الإنسانية . . . فيبقى الشر - وبخاصة فى مراحل الازدهار - محصوراً فى جوانب قليلة ، وفى دائرة الشذوذ ، بينما يمتد الخير إلى معظم المساحة الإنسانية ، ويمثل - بالتالى - قاعدة الحياة الإنسانية . . . إن المجتمع الذى لا أخطاء فيه ليس إنسانيّا ، ومثل هذا المجتمع لا يوجد - ولا يمكن أن يوجد -



فى التاريخ البشرى . . . والفترة التى وجد فيها الأنبياء - عليهم السلام - ولا سيما فى لحظات انتصارهم، وسيطرة مبادئهم هى أعلى المراحل التى يمكن أن تصل إليها البشرية . . .

إنها المثال الذى تضعه العناية الإلهية فى «نموذج تاريخى» واقعى لكى تبقى البشرية متفائلة مقاومة للشر، متوترة، ساعية إلى الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من هذا المثال الحى الواقعى.

وليس فى طوق الطبيعة الإنسانية أن يقوى الناس جميعًا - أو أكثرهم - على الوقوف فى القمة والتشبث بمواقع البطولة والمثال .

إن سحرة فرعون الذين قالوا عندما تألقت الحقيقة فى ضمائرهم ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١].

وفاجأوا فرعون بإعلانهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، غير عابئين بتهديده الرهيب: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ - ١٢٤].

إن هؤلاء السحرة قد ارتفعوا فى لحظة من التاريخ إلى أعلى ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تصل إليه، وليس لنا أن نتوقع أن يكون كل الناس مؤهلين لهذا الارتفاع، ولا لهذا القدر من التضحية الرائعة، ومن التفانى فى الحق المتألق . . .

كما أنه ليس مطلوبًا من كل الناس أن يكونوا فى مستوى أبى بكر الصديق؛ الذى يتبرع بكل ماله . . . إن أبا بكر مجرد (نموذج للمثال)، أما المستوى المتناغم مع الطبيعة البشرية فهو المستوى الذى حدده الرسول - عليه الصلاة والسلام - عندما منع (سعد بن أبى وقاص) من أن يتصدق بكل ماله؛ بل رضى له ما هو أقل من ذلك؛ حتى يذر ورثته أغنياء لا يتكففون الناس، وحسبه أن يهب ثلث ماله . . . بل إن الثلث كثير !!

ونموذج الأنصار الذين منحهم القرآن أرفع درجة فى التاريخ - الإيثار بالمال والأرض - هو أيضًا مجرد نموذج للمثال الذى يقدم أروع صورة تستطيع البشرية





أن تقترب منها، وليس شرطًا أن تكون فى مستواها، فيصبح كل مسلم قادرًا أن يقول لكل مسلم: انظر أى مالى أطيب فخذه، أو انظر أى زوجتىَّ شئت فأطلقها لتتزوجها . . !! إن هذا المستوى ليس هو المستوى العادى للطبيعة البشرية . . . إنه الومضات الإنسانية؛ التى تمثل أعلى ما يمكن أن يصل إليه البشر . . . إنه مستوى القمة والمثال . . .

وليس من الموضوعية؛ أن يحاكم التاريخ البشرى بأقوى وأكبر مما تطيقه الطبيعة البشرية . . . وحتى القوانين الوضعية ترفض هذا المقياس؛ لكن بعضها - مع الأسف - تتدنى فتهبط خضوعًا للضعف البشرى إلى مستوى تقنين هذا الضعف، وجعله فى نطاق الجائز، بدلاً من أن يُدعم جانب مقاومته لتصعد به إلى المستوى المنسجم مع الطبيعة البشرية، تلك الطبيعة التى لا يجوز لها أن تستسلم لصور الضعف، وتقبل تحويلها من دائرة الشذوذ إلى دائرة القاعدة، ومن جانب الخطأ إلى جانب الصواب!!

وأحرى بمنهج دراسة التاريخ وتفسيره؛ أن يلتزم هذه العدالة فى التقويم، وأن يضع فى وعيه التصور الموضوعى للإنسان كله، بكل قوته وضعفه، وبكل العناصر التى ركب منها.

إن محاولة رفع بعض عصور التاريخ إلى درجة فوق مستوى البشر وطاقة البشر، بهدف التدرج من هذا الارتفاع إلى محاسبتها بميزان غير بشرى، ومطالبتها بأن تكون متجردة من كل النوازع البشرية، ومن كل ما يجوز على البشر . . . إنما هى مؤامرة لتشويه هذه العصور (!!) والعلمانيون يستثمرون هذه المؤامرة!! بهدف مسبق هو تشويه تاريخنا الإسلامى، ورجاله العظماء، ودوله العظيمة.

إننا نوافق بالطبع؛ بل نحن نؤمن، بضرورة أن تكون بعض عصور التاريخ، وأن يكون بعض صناع الحضارات العظمى، بعيدين عن التدنى إلى المستوى العادى فى الأخطاء، وبأن يكون لهذا المستوى الرفيع تعبيره الخاص عن بشريته بما ينسجم مع القمة التى يمثلها . . . ونحن نستطيع فى ضوء هذا الوعى تحليل بعض التصرفات التى تعزى إلى هؤلاء تحليلاً مناسبًا لمكانتهم؛ لكن تجريدهم من



المستوى البشرى - بإيجابياته وسلبياته واجتهاداته العقلية والسلوكية الصحيحة والخطأ أو المعيبة - ووقوعه تحت ضغوط أو ردود أفعال ومؤامرات؛ إنما هو أسلوب غير موضوعى وغير صحيح !!

ولقد سقط كثيرون - سقوطًا منهجيًا فى الأساس - عندما تعاملوا مع تاريخنا، غير مسلحين بهذه الرؤية التاريخية الإنسانية الموضوعية . . . وسواء كان الأمر عن حسن نية، أو سوء قصد، فقد انتهى كثير من هؤلاء - نتيجة فساد منهجهم - إلى تجريح بعض الصحابة، وإلى تضخيم صور الخلافات بينهم، وإلى القول فى نهاية الأمر بأن شريعة الإسلام لم تطبق إلا فى حقبة من الزمان، تنتهى بنهاية عصر الراشدين (٤١هـ) . . . أما العصور التالية، والتى تبدأ بالدولة الأموية (٤١ ـ١٣٢هـ) وتستمر حتى اليوم، فهى عصور (علمانية) غابت عنها الشريعة، وحكمتها معادلات سياسية مصلحية، وأوضاع اجتماعية واقتصادية بشرية لا صلة لها بتعاليم الإسلام (!!) وهذا قول بالغ الفساد، عظيم الظلم لا ينتمى إلى تاريخنا بصلة، وقد قدمنا بعض الصور من صفحة القضاء تؤكد سموّ هذا التاريخ وتظهر المكانة الرفيعة التى احتلتها الشريعة فى حياتها.

وفى الصفحات التالية نعرض للتاريخ الإسلامى بعد الراشدين، وصولاً إلى التحليل النقدى الموضوعىّ له . . .

تاريخ ما بعد الراشدين والتحليل النقدى

لقد عالج كثيرون - مسلمون وغير مسلمين - تاريخنا بمنهج غير علمى، وقد جاء تقويمهم جانحًا يميل إلى الإفراط أو التفريط . . . وقد غلبت على بعضهم نزعات مذهبية جعلتهم يحللون النظم والدول والوقائع وفقًا لرؤية مسبقة، وقلما ينجحون فى كشف حجب التاريخ ورصد الوقائع رصداً موضوعيًا . . .

لكن مثقفى الأمة وجمهور مؤرخيها استطاعوا - بمنهج النقد المستفيد من منهج علم الحديث إلى حد كبير - رصد الخلفية المذهبية لهؤلاء، ومن ثم تحليل كتاباتهم التاريخية، وتقويمها تقويمًا علميًا . .



وفى هذا السياق؛ رَصَدَ المنهج التاريخى الإسلامى تلك المصادر التى يتحرك مؤلفوها بخلفية مذهبية مسبقة، تحول دون تحقيق القدر المقبول من الموضوعية . . . ولم يترك تاريخنا دون تحليل نقدى كما يزعم أركون وتلامذته !!

وبدءاً من تدوين السيرة كان ثمة تقويم خضع له رجالُ التدوين الأولون، بعيداً عن التعصب والهوى . . .

فقد قيل عن شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) إنه يميل إلى العباسيين لأسباب مصلحية !!

وقيل عن وهب بن منبه (ت ١١٤هـ) إنه شغوف بالطرائف التى أوقعته فى الإسرائيليات . . .

وقيل عن الواقدى (٢٠٧هـ) إن له ميولاً لآل البيت .

وقيل عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى (١٥٧هـ) إنه يميل لآل البيت ولقبيلة الأزد [١] .

أما كاتب السيرة الكبير ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) فقد هاجمه المحدثون؛ لأن الفروق بين منهجى الحديث والتاريخ لم تكن وضحت، وكان المحدثون - جزاهم الله خيراً - يريدون أن تكون درجة روايات التاريخ فى مستوى درجة روايات الحديث . . . وأن يخضع المؤرخ لشروط المحدث، ولهذا فإن وقائعه تحاكم إلى ما ورد فى القرآن والسنة الشريفة . . . لكن المراحل التالية للقرن الأول يصعب أن تخضع لمنهج الجرح والتعديل الذى خضع له رجال الحديث . . . وإن كان هذا مطلباً كريماً يجب أن يعمل المؤرخون على تحقيقه . . !!

ولئن كان هذا الجيل من التابعين وتابعى التابعين قد تعرضت رواياته لبعض النقد . . . فقد اتجه النقد إلى المؤرخين الذين جاءوا بعدهم من باب أولى . . .

(١) محمد ياسين مظهر الصديقى : قضايا كتابة التاريخ الإسلامى وحلولها، نشر الجامعة السلفية بنارس - الهند - جمادى الآخرة (١٤٠٩هـ)، انظر محمد السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى، ص: ٤٨١، طبع دار طيبة بالرياض، الأولى (١٤٠٦هـ)، وكل المسلمين يحبون آل البيت؛ لكن المراد بالميل هنا الاقتراب من ظلم من اختلفوا مع آل البيت وليس مجرد تخطئتهم !!.



فقد ذكر المؤرخون أن المسعودى (ت ٣٤٥هـ) كان ذا ميول لآل البيت، دفعته إلى التحيز ضد الأمويين، ومع ذلك تمتع بقدر من الاعتدال والموضوعية؛ عندما تحدث عن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه وعن عبد الملك بن مروان، وغيرهما من رجال بنى أمية !!

وكان اليعقوبى يمضى فى الطريق نفسه؛ بل كان واضح التحيز لآل البيت !!

أما أبو الفرج الأصفهانى (٣٥٦هـ) صاحب الأغانى، فقد كان أجيراً لبنى بويه (الشيعة)، وقد كتب لهم الأغانى بغية الأجر والمكافأة، وقد عرف ما يرضيهم، فأدان الأمويين، وبعض العباسيين، وبعض آل البيت من أجلهم، وبالغ فى ذلك حتى ينسى الناس أصله الأموى !!

بينما كان ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) صاحب صورة الأرض، جاسوسًا للفاطميين يحرضهم ضد الأندلس، ويسب الأندلسيين والأمويين فى الأندلس من أجلهم . . .

وكان المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى (ت ٦٣٠هـ تقريبًا) صاحب (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) يعمل موظفًا لدى الموحدين، وقد كتب كتابه (المعجب) من أجلهم، وليس لنا أن نتوقع منه إنصافًا للمرابطين؛ الذين قضى الموحدون عليهم بطريقة دموية آثمة !!

والأمثلة كثيرة لا نريد أن نستطرد فى ذكرها، من أجل تأكيد حقيقة ثابتة؛ وهى أن المؤرخ المسلم الذى يضرب بجذوره فى أرض «علوم السُّنَّة»، والذى تَشكَّل أساسًا على منهج إيمانى نقدى إبداعى باحث عن الحق المجرد، لم يكن مؤرخًا تقليديّا نمطيّا استسلاميّا سكونيّا، كما يحاول خصوم الحضارة الإسلامية أن يصوروه !!

وما كان العقل النقدى المسلم - لو كان عقلاً سكونيّا تقليديّا - قادراً على إفراز عمالقة فى علم نقد الرجال، وفى نقد المتن (المضمون) يعدون بالآلاف فى حضارتنا، وعلى رأسهم أئمة الحديث المعروفون، وعلى رأسهم البخارى

ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى، وابن ماجه، وعدد كبير من الفقهاء وعلى رأسهم أئمة المذاهب الثلاثة عشر [1] الذين انتشر من بينهم فقه أقطاب المذاهب الأربعة أبو حنيفة (ت ١٥٠ هـ)، ومالك (ت ١٧٩ هـ)، والشافعى (ت ٢٠٤ هـ)، وابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ثم الظاهرية بقيادة داود الظاهرى، وأبو محمد على بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)، ثم الإمام (أحمد بن عبد الحليم بن تيمية) (ت ٧٢٨هـ)، والمؤرخ الاجتماعى الكبير/ عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ)، الذى يعده المؤرخون الأوروبيون ـ المنصفون ـ أول من وضع نظرية فى علمية (علم التاريخ) وفى قوانين (تفسير التاريخ) !!

وعبر تاريخنا الممتد فى الزمان أربعة عشر قرنًا، والممتد فى المكان إلى مساحة كبيرة من أكبر قارات الأرض، والتى شملت ـ فى قرون كثيرة ـ دولاً تقترب من نصف العالم، وتسيطر على العالم المتحضر ما يقرب من عشرة قرون .

عبر هذا التاريخ ظهر آلاف من المشتغلين بعلوم النقد المنهجى، بدراسة علوم الحديث، وفروع السيرة والتاريخ، وبرصد الجوانب الإصلاحية والحضارية . . .

وكان هؤلاء جميعًا يتعاملون فى الإطار البشرى، بمعنى أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، فكل إنسان غيره يؤخذ من قوله ويترك، والمهم أن يكون النقد منهجيّا قائمًا على أصول علمية، ولا يكون مجرد دعاوىً أو افتراءات واختلافات، وقد وضعوا كتبًا فى أدب الاختلاف وأدب الحوار، وفى منهج الوصول إلى الحق من خلال النقد والتمحيص القائم على قواعد صحيحة والهادف إلى الحق . . . وقد انطلقوا فى ذلك من القاعدة النبوية الكريمة؛ التى تعلمهم أن المجتهد الذى تتوفر فيه مؤهلات الاجتهاد، والذى يلتزم منهج الحق مثاب، سواء أصاب فى اجتهاده أو أخطأ . . وحتى يبذل المجتهد أكبر جهد فى الوصول إلى الصواب، أعطى الإسلام المجتهد المصيب أجرين، وأعطى المجتهد المخطئ أجرًا واحدًا !!

---

(١) من المذاهب الفقهية التى انتشرت : الظاهرية، ومذهب الأوزاعى، وسفيان الثورى، والليث بن سعد، ويحيى بن عيينة، والحسن البصرى، وسعيد بن المسيب . . . وغيرهم بالإضافة إلى أصحاب المذاهب الأربعة.



وفى حضارتنا العلمية كانت الأحكام الإجمالية مرفوضة، فالعقل المسلم درج منهجه فى علوم الحديث وأصول الفقه والتفسير واللغة والبلاغة على تفكيك القضايا وتحليلها، ومن ثم إعادة تركيبها.

وقد بالغ العقل المسلم فى التحليل (التفكيك عند أركون) لدرجة جعلت بعض المستشرقين (والمستشرق جب [1] على رأسهم) يتهمون العقل المسلم بأنه عقل «ذرى» (أى جزئى غير قادر على التركيب والتقنين الكلى) !!

وعندما كان المسلمون يمرون ببعض محطات التخلف كانت تظهر فيهم - مثل غيرهم - بعض مظاهر التخلف؛ التى يرصدها خصومهم، ويزيد بعضهم برؤية مضادة وظالمة أن يجعل من هذه المظاهر سمة عصورهم كلها، وبالتالى سمة دينهم وحضارتهم !!

وإن أمة تملك علوم الجرح والتعديل، وعلوم النقد التاريخى قبل أن تعرفها البشرية، وتسبق العقل الحديث فى التعرف على تفسير التاريخ، وعلوم العمران والحضارة . . . هذه الأمة لا تحتاج إلى من يلفتون نظرها - من خصومها - إلى ضرورة نقد أصولها . . . إنهم لا يريدون نقداً؛ وإنما يريدون هدماً.

* * *

---

(١) انظر : كتابه (وجهة الإسلام) لكن (جب) تجاهل فى هذا الاتهام أمرين :
أولهما: أن الذرية التى لا تعود إلى التركيب من سمات كل عصور التخلف وليست خاصة بجنس دون جنس.
وثانيهما: أن المسلمين أفرزوا مناهج علمية واكتشافات وقوانين وكليات وعلوما ونظريات رائعة فكرية وتطبيقية فى عصور ازدهارهم.





نسيج التاريخ الإسلامى
ومنظومة الحضارة الإسلامية

* لم يبذل حتى الآن جهد موضوعى كاف فى مجال اعتماد التاريخ منطلقًا من المنطلقات الأساس لنهضة الأمة الإسلامية !!

ففى المجال الثقافى ما زال تاريخنا الإسلامى يُتعامل معه على أساس الانتقاء المذهبى، وإسقاط الأيديولوجية المسبقة، وعلى أحسن الفروض يتعامل معه على أساس أنه مجرد ذاكرة لماضى الأمة، وأن وقائعه يجب أن تخضع لمعايير التوثيق السليم، والعرض المنهجى التقليدى .

وفى المجال الدراسى التعليمى ما زال تاريخنا بعيدًا عن بناء إنسان مسلم عالمى الرؤية والأهداف؛ يتلقى التاريخ على أساس أنه تاريخ كل المسلمين، وأنه المحاولة البشرية - بإيجابياتها وسلبياتها - لتطبيق المبادئ الإسلامية فى الحياة، وأنه الترجمة الصادقة لفاعلية المسلمين فى التاريخ الحضارى .

إنه يقدم فى كل بلد مسلم تقديمًا خاضعًا لنظام الحكم، وتُلوى عنق وقائعه لتخدم التوجه السياسى لكل بلد، ولتساعد على تخريج جيل يؤمن بالنظام السائد، وببعض ما يرضى عنه النظام من فترات الماضى!!

* إنها لكارثة حقًا أن تشكل مؤسسات للعرب جميعًا وللمسلمين جميعًا، وأن تعلو أصوات كثيرين بوحدة المسلمين وبالتضامن الإسلامى، بينما يفرض على تاريخ المسلمين أن يسخر لتفتيت المسلمين وغرس الإقليمية والقومية



العنصرية، بل وتبرير بعض المذاهب المادية والعلمانية والإلحادية والباطنية التى فرضها خصوم المسلمين عليهم من جراء ضعفهم وتمزقهم، وعدم تعبيرهم التعبير الصحيح عن حقائق الإسلام ومنهجه فى بناء الفرد، والأمة، والحضارة.

ووسط هذا الإجهاض لدور التاريخ فى بناء نهضة الأمة تقف هنا وهناك محاولات قليلة تشبه الشموع وسط ظلام حالك.

إنها محاولات تحاول تعميق النظرة فى التاريخ نفسه، وليس تشريحه وفق خلفية مسبقة وتوظيف رسمى أو مذهب محدد . . .

وهى تحاول أن تنظر إلى وحدة التاريخ الإسلامى وتشابكه على أساس وحدة الحضارة الإسلامية، حتى وإن اختلفت أساليب التعبير وأصداء الإيقاعات . . .

* فمن فوق مناهج التمزيق الذى يعتمد عناصر الدولة، أو القوم، أو الأرض، أو اللغة ـ وحدها ـ أو كلّ عنصر على حدة؛ يقوم التشريح الإسلامى للتاريخ على أساس (الحضارة) باعتبارها الوحدة القابلة للتنظير والتفسير الشمولى الموضوعى. . .

* ولأن الإسلام كان دائمًا ـ حتى وإن خانته طائفة حاكمة أو طائفة مذهبية خارجة على انسجام الحضارة وأصولها ـ دينًا ينساب فى كل أركان الحياة، ويتفاعل انطلاقا من عقيدة المسلم الفرد وإيمانه وشريعته فى مستواه وفى مستوى الجماعة . . .

ولأن الإسلام دين ملتصق بواقع الناس وشتى أركان حياتهم على هذا النحو المعروف، فإن الإسلام كان ـ دائما وما زال ـ يشكل ـ بنظمه ومؤسساته، وطوائفه المؤمنة، والعالمة، والصانعة، والزارعة، والمجاهدة ـ الخيوط الثابتة التى تصنع نسيج المجتمع وتحكم علاقاته، وثوابته، وعاداته، وتقاليده.

وهذا النسيج المتصل بأركان الحياة الفردية والاجتماعية من كل زواياه لا يتأثر إلا قليلاً بالتحولات التى تقع فى المستوى السياسى، ولا سيما وأنه إلى ما قبل التخلف الحضارى العلمى والفكرى الذى وقع فيه المسلمون فى مواجهة الحضارة الأوروبية الحديثة؛ كان المسلمون ـ على الرغم من كل ما لحق بهم من هزات

وتقلبات ـ هم أصحاب الحضارة العليا، وهم أساتذة الدنيا، وحتى لغتهم كانت الأولى فى العالم التى تعتبر لغة الثقافة والحضارة !!

* وهذه الحقيقة الثابتة تُسقط ـ من ثمَّ ـ كل التفسيرات السطحية التى وقفت كثيراً عند بعض المعابر السياسية فى التاريخ الإسلامى السياسى، مثل ما سمى (بالفتنة الكبرى) بين علىّ ومعاوية (رضى الله عنهما) وما سمّىَ بقيام دولة بنى أمية، وظهور الملك العضوض وآثاره ـ فى رأى بعضهم ـ ومثل سقوط بنى أمية وقيام بنى العباس، أو ظهور المماليك أو سقوطهم، إلى أن يصل الأمر إلى سقوط بنى عثمان، وقيام عصر الدويلات الطائفية الأخيرة، وهو الحدث الذى يعتبر ـ بحق ـ من التحولات التاريخية الأسيفة، ليس لمجرد سقوط العثمانيين وخلافتهم، بل لأن هذا السقوط تبعه تنحية شريعة المسلمين على المستوى الرسمى، وتفكك المسلمين على المستوى العقدى والفكرى، وخضوعهم لتيارات (أيديولوجية) معادية للثوابت الإسلامية، وعجزهم عن المواجهة الموازية للتحديات الحضارية التقنية، والعلميّة، والسياسية، والعسكرية، التى يتمتع بها الذين أسقطوا خلافة بنى عثمان .

* * *

* إن سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) على يد التتار لم يكن تحولاً حضاريّا، وإن كان تحولاً سياسيّا؛ ذلك لأن مبادئ الحضارة الإسلامية لم تلبث أن تفوقت على الغزاة المنتصرين، وحولتهم إلى جنود لها . . . كما أن العباسيين والأيوبيين والمماليك؛ مثّلوا جميعًا الحضارة الإسلامية على اختلاف فى مستويات التعبير !!

فخط السياسة غير خط الحضارة إذن !!

وبالطبع فليس بوسعنا أن نتجاوز معبر سقوط الأندلس وغرناطة سنة (٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م) فهنا صفحة طويت وامتزجت بقايا إشعاعاتها بأرض المغرب العربى . . . ومع أنها (محطة) حقيقية يجب الوقوف طويلاً عند عوامل سقوطها، إلا أن المسلمين لم يتحدثوا عنها كما تحدثوا عن قيام بنى أمية وفتنة على ومعاوية (رضى الله عنهما)، مع أن الثانية ليست إلا تغيّراً فى الشريحة السياسية

والأسلوب السياسى فى الحكم، وقد يكون تغيراً له مبرراته التاريخية ؛ بينما كانت الأولى (سقوطًا) و (انقطاعًا) حضاريًا بكل معنى الانقطاع الحضارى فى هذا الركن الجنوبى من أوروبّا . . . وللأسف فإن المنهج الخطأ جعل كثيراً من المسلمين يتحدثون عن أمجادهم فى إسبانيا، دون أن يقدموا دراسات تفصيلية جادة ومكثفة عن أسباب سقوط الأندلس !!

* إنّ التفسير الإسلامى للتاريخ يجب أن يعيد ترتيب «المحاط» فى دراسة التاريخ الإسلامى اعتماداً على (وحدة الحضارة) من جانب، وعلى (الحضارة) ـ كوحدة ـ من جانب آخر !!

(فجسم) الحضارة الإسلامية الذى هو الكيان المادى للمسلمين من تراب وإنسان يجب أن ينظر إليه على أساس أنه وحدة . . .

كما أن (عقل) الحضارة الإسلامية، وما أفرزه من إبداعات فى الفكر، والفنّ، والأدب، والفقه، والفلسفة، والعمارة، والزراعة، والصناعة يجب أن ينظر إليه ـ كذلك ـ كوحدة . . .

و(روح) الحضارة الإسلامية التى هى جوهرها وقلبها، هى وحدة كذلك بكل ما تضمّه من عقيدة وأخلاق وتشريع وصياغة روحية للحياة ؛ تؤمن بالغيب كما تؤمن بعالم الشهادات، وتستعين بذلك على صياغة الحياة، وتؤمن بوجود الله، وبعنايته، ورعايته لحركة الإنسان فى التاريخ . . .

* إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يساعد الإنسان، و لا يكبّله، ويحنو على خطاه، ويدفعها للأمام، ولا يجمدها أو يشدها إلى الخلف . . . وما الأنبياء والمرسلون إلا منظمون لحركة الإنسان حتى لا يحاول القفز من فوق السُّنن الكونية، وضوابط الحركة الاجتماعية، ويعبد ذاته، ويجعلها هدفًا، وينسى وظائفه الوجودية، وارتباطاته العليا بمسؤولية إنسانيته وبوظيفة سامية فى هذا الكون . . .

* إنّ ما يقدمه الأنبياء ليس تكبيلاً ـ كما يفهم الملحدون المتخلفون ـ وإنما هو شارات الطريق وخريطة الفعل الحضارى التى تفرق بين المنطقة الصالحة للسّير، والمنطقة المهلكة التى يموت فيها الإنسان، وتنهار الحضارة فى أوحالها ورمالها المتحركة !!



ونحن لم نجد فى التاريخ حضارة مشت بدون هذه الشارات والضوابط ، وتجرأت على المناطق الحرام ؛ إلا كان مصيرها الزوال مهما امتد بها العمر ، وقد ورثها قوم آخرون مضوا وفق سنن الله والضوابط والشارات التى وضعها المرسلون من الله سبحانه وتعالى .

* ويعدّ من أهم ما يلتزم به التفسير الإسلامى للتاريخ أن يقسّم تاريخ البشرية على ضوء تفاعلها مع رسالات الأنبياء ومستوى إيمانها بها ، ومحاولاتها تقديم صياغة للحياة على ضوء الثوابت العقدية والتشريعية التى قدموها ، أو ـ من جانب آخر ـ خروجها على هذه الثوابت وما أصابها فى مسيرتها من جرَّاء هذا الخروج .

* وعندما يصل التاريخ البشرىّ ـ من مراحل تعدّده ـ إلى مرحلة نزول القرآن وظهور النبى محمد ﷺ ؛ فإنه يكون قد انتهى إلى المرحلة القرآنية التى تتألق فيها الرسالة النبوية والإسلامية الشموليّة ، وبدءاً من هذا التاريخ تبدع الإنسانية المسلمة حضارة تمتد إشعاعاتها إلى كل قارات الأرض .

ونحن نرى البشرية ـ هنا وبدءاً من هذه المرحلة الفاصلة ـ تنقسم بوضوح شديد أكثر من أى مرحلة سابقة إلى (إسلام) و(كفْر) أو (إسلام) و (وثنية) . . . وفى هذه المرحلة التى تعكس الهيمنة القرآنية نرى امتزاج العقل بالوحى ، ونرى تكاملاً يقدم للبشرية نموذجًا حضاريّا وإنسانيّا متوازيًا ؛ يتكامل فيه إبداع الجسم مع العقل مع الروح . . .

* وعندما كان المسلمون يمرون بمراحل التخلف كان التوازن يختل ، ويتفوق رصيد الجسم على رصيد العقل ، أو رصيد الروح ، وكانت النسب التعادلية تتعرض ـ بالتالى ـ لخلل جوهرى ، ينتهى إلى إفراز إبداع حضارى تنقصه بعض خصائص حضارة الإسلام . وقد تمرّ فترة من الوقت ، ولا تلبث الموازين القرآنية الثابتة التى تكفّل الله بحفظها أن تفرز مصلحين يعيدون الفعاليّة الإسلامية إلى توازنها فى إطار ما يقوى عليه البشر ، وما تسمح به خصائصهم الإنسانيّة .

ولا بدّ ، ونحن نؤطر للتنظير الإسلامى للتاريخ فى المرحلة القرآنية ؛ أن ننظر إلى العالم المسلم كوحدة ، وأن ننظر إلى العالم غير المسلم كوحدة منفصلة أو



متقابلة . . . فهنا حضارة إسلام، تمثلها أمّة مسلمة أخرجت للنّاس . . . وهناك حضارة قائمة على التصورات الوثنية أو العقلية المحضة ؛ ولم يستطع اللاهوت المسيحى أن يخضع التاريخ الوسيط أو الحديث لأطروحاته ؛ لأنه ـ أولاً ـ كان معزولاً عن الدنيا، ولأنه ـ ثانيًا ـ لم تكن له شريعة فاعلة، ولأنه ـ ثالثًا ـ لم يكن محتضنًا للعقل ؛ بل كان محاربًا له، ولأنه ـ رابعًا ـ امتزج بالوثنية، وفقد ذاته الروحية وتوحيده الإلهى منذ مجمع نيقيّة (٣٢٥م) . . . كما أنّ اليهودية لم يكن لها امتداد عالمى، أو مشروع حضارىّ إنسانىّ ؛ بل كانت ـ دائمًا ـ عقيدة عنصرية قومية مغلقة!!

* * *

* إنّه على امتداد القرون التالية لميلاد الإسلام ٦١٠م لم يكن هناك مشروع حضارىّ واضح القسمات والمنهج غير الحضارة الإسلامية . . .

ولو أنّ المسلمين لم يصابوا بالهمود الحضارىّ، والتآكل الداخلىّ، والغياب عن فقه السنن الاجتماعية والكونية ؛ ولو أنّهم نجحوا فى دخول عصر التقدم التقنى الحديث، مسلحين بالعقل، والروح، والمادة، مازجين بين القراءة الإلهية التى قدمها الوحى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق : ١]، والقراءة الكونية ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق : ٣ ـ ٤]، لو أنّهم فعلوا ذلك لأمكن أن يتفوقوا على اليابان، وعلى النماذج الغربية الموجودة أمامنا . . .

* وفى هذا الإطار فإن تجربتهم فى التاريخ كانت ستقدم لهم كثيراً من مقومات الإقلاع الحضارى، وكانت ستكشف لهم ـ من خلال رصد الإيجابيات والسلبيات ـ الخصوصية الحضارية التى لن ينطلقوا بدونها، وكانت ـ بالتالى ـ ستوفر عليهم هذه الفوضى الفكرية، وهذه التبعيات المتتالية للفكر الأوروبى : شرقية أو غربية، وهذه الازدواجية المتناقضة بين الحكام والمحكومين، وبين بعض شرائح الحضارة الإسلامية التى تسمى دولاً وبعضها الآخر، وبين بعض المفكرين والمفكرين الآخرين، وكان فى الإمكان أن يتحول الخلاف إلى تكامل، واختلاف الوسائل إلى مصب واحد فى نهاية الأمر، ولربما نجح المسلمون فى أن يوفروا



قرونًا ثلاثة ؛ تاهوا فيها فى التاريخ ، وبددوا طاقات مادية ومعنوية لا يعلم حقيقتها إلا الله .

* * *

ولكى تكون نهضة الأمة حقيقة ، فلا بد لها من دراسة ماضيها دراسة واعية شاملة ، وهذا يقتضى منها بعث تجربتها التاريخية بعثًا جديدًا ، وتمثلها تمثلاً جديدًا ؛ لا يُكتفى فيه بالرصد السياسى ، ولا بسلامة الرواية والنقل ، ولا بالنقد الجزئى للمتن ؛ بل بالاستلهام الشامل لماضى الحضارة الإسلامية ، عبورًا بسلامة الوثائق ، وبالنقد الجزئى ، ووصولاً إلى تفسير إسلامى موضوعى للتاريخ .

* * *

إن الوثائق لن تكون هى الأساس فى المنهج التنظيرى الذى ينشد التاريخ ؛ بل إنّ أسهل شىء يقوم به الباحث أن يصل إلى المعلومات «الموثقة» ثم يضمها إلى بعضها ، ويقدم بعد ذلك إطارًا قد التصقت وقائعه فصار تاريخًا .

إن الوثائق - بلا ريب - هى بعض عمل المؤرخ ، لكن الأهم فى عمل المؤرخ أن يعيش التاريخ ، وأن ينقله إلينا حياة نابضة نكاد نراها ونلمسها ، ونشعر بكل تفاعلاتها وأركانها . وبما أن حياة الناس فى التاريخ لم تكن جداول هندسية أو أرقامًا ميتة ، أو جيوشًا منضبطة الحركة والإيقاع ؛ فإن على المؤرخ أن ينقل إلينا التاريخ بكل بشريته وأمواجه المتلاطمة ، والبواعث الفكرية ، والنفسية التى تقف وراء كل موجة .

إننا نقف - بيقين - مع المؤرخ الكبير (فلهام دلتاى) فى مطالبته المؤرخ أن يستحضر الحياة مرة أخرى ، وأن يحيا الحياة من جديد فى نفسه وإلا فقد التاريخ ماهيته وجوهره» ، وبالتالى لن يكون مؤرخًا حقيقيًا إلا من أوتى عمقًا وسعة فى حياته الروحية الباطنية ؛ يمكنانه من أن يحيا تجارب الماضى مهما يكن من تنوعها وشدتها ، و من أوتى فيضًا وخصبًا فى هذه الحياة ييسران له بعث الحياة فى هذه

المادة الميتة (الوقائع) التى استحالت إليها الحياة الماضية، ولم يعد أمامه غيرها[1] .

لكن (دلتاى) لم يقدم لنا الوسائل الكافية لإخراج الماضى من موته إلى الحياة. . . إنه يرشدنا إلى أن (الفرديّة المطلقة) القائمة على عدم التجانس وعلى صعوبة التركيب هى السبيل لهذا الإحياء ؛ «فكما أن برجسون قد قال بأنّ الحى يمتاز عما هو مادى بأنه يكوّن كُلاّ مستقلاّ مقفلاً ؛ لأنه مركب من أجزاء غير متجانسة يكمل بعضها بعضًا فكذلك يقول (دلتاى) : إن كل فرد يكون كلاّ مستقلاّ مقفلاً» .

وعند (دلتاى) أن العظماء ما كانوا عظماء إلاّ لأنّهم استطاعوا أن يجمعوا فى نفوسهم كل التيارات الروحية التى تضطرب بها روح الشعب أو الحضارة التى ينتسبون إليها، ليس عن طريق الإيغال فيه ؛ لأن عملهم إنما هو تحقيق لروح العصر فيصبحون ممثليه[2] .

وعلى أساس هذا التحديد الذى ذهب إليه (دلتاى) كان الشعراء هم أقدر الناس - فى رأيه - على تصوير الحياة فى كل مظاهرها .

لكن رأى (دلتاى) - فى أن (الفردية) التى تعنى أنّ الفرد هو (مجتمع مصغر)، أو أن الفرد هو الممثل الصحيح والكامل للحضارة - رأى فيه مبالغة، ففى كل مجتمع شذوذ يعبّر عن النوازع البشرية الخاصة التى قد لا يمثل أصحابها حضارتهم، ومن جانب آخر فإنّ (الشعراء) ليسوا الممثلين الواقعيين لحضارتهم - كما ذهب (دلتاى) - وإن مثلوا بعض آمالها وآلامها .

بل إن تقدير الثوابت الحضارية فى كل مجتمع شرط ضرورى لإعادة تمثّل الماضى وإحيائه، ومع إحياء الإيقاعات الفردية المتنوعة، فإن الفقه الموضوعى بروح الحضارة، ومسلماتها، وبيئتها، ومناخها الفكرى والنفسى والروحى ؛ هو أكبر ضمان لإمكانية استحضار التاريخ وتمثله، ذلك لأن البشر العاديين عندما

(١) عبد الرحمن بدوى : شبنجلر، ص : ٤٠ .
(٢) المرجع السابق. ص : ٤١، ٤٢ .

يعبرون عن فرديتهم فإنما يعبرون فى فكرهم وسلوكهم عن إطار حضارى ينتمون إليه . . . إنهم أفراد وسط إطار عام ، وهم يتحركون فوق أرض وروح فى سياق واحد .

إن العقائد والأعراف والتقاليد الراسخة فى كل حضارة هى التى تصوغ ـ إلى حد كبير ـ حياة الناس ، ومن الصعب إدراك التنوع والفرديّة دون ربطهما بأطرهما الثابتة التى تشكل الجزء الأكبر من مساحة توجيه الحياة وصبغها .

وباستثناء القلة الشاذة ، والمتمردة والمنسلخة فى كل حضارة ، فإن مجموع أبناء الحضارة الذين يتنوعون فى التعبير ، ويخضعون ـ فى الوقت نفسه ـ لثوابت فى التصور والسلوك تجعل منهم ممثلين لحضارة واحدة ! !

إن حضارة المسلمين تقوم على قيم تتمثل فى أفكار وأنماط سلوكية ، وأماكن تمارس فيها هذه السلوكيات ، ووسائل تعبير مختلفة من الفكر ؛ أما نماذج بشار بن برد ، وأبى نواس ، وابن الراوندى ، وجماعات الزندقة ، والحشاشين ، والباطنيّة ؛ فهى الإيقاعات الشاذة المنسلخة .

لكن باستثناء هؤلاء وأمثالهم ؛ فإن مجموع أفراد الأمة يعبرون عن إطار الحضارة الإسلامية . . .

فالعبادات المختلفة ترتبط بأزمنة وأمكنة وسلوكيات وصياغة لنشاطات الحياة وَفْق تعاليم الإسلام . . . وقد كان الناس يلتزمون بها ويبرمجون حياتهم فى الزمان ، والمكان والعمل وفقها .

وتأتى النظم الإسلامية فى المعاملات والسياسة والاقتصاد لتحدد أنماطًا سلوكية وفكرية تتكامل مع توجيهات العبادات .

وفى الوقت نفسه فإن مختلف العبادات والمعاملات تقف على أرضية عقدية تحكم المسلم فى فكره وسلوكه ـ بنسبة إجمالية ـ وتحدد له مجال الحلال والحرام .

فمن المستحيل ـ على سبيل المثال ـ فى مجتمعات المسلمين ـ فى شتى عصورهم ـ أن تظهر علاقة الرجل بالمرأة على النحو الذى ظهرت به فى الحضارة الإغريقية ،



أو تظهر به الآن فى الحضارة الأوروبية الحديثة . وفى المجتمع الإسلامى لم يكن للربا السيطرة على الحياة الاقتصادية كما كان الحال فى سيطرته على حياة العصور الحديثة . وأيضًا فإنه لطبيعة المبادئ الإسلامية فى التكافل الاجتماعى - من صور الإحسان الإلزامى ، والزكاة ، وحق الضيافة ، والماعون ، والأرحام ، ونظام الميراث ، والجار - بقى المجتمع الإسلامى بعيداً عن ظاهرة الإقطاع والصراع الطبقى التى كان عليها حال العصور الوسطى .

وهكذا - فى تصورنا - يمكن استحضار الحياة الماضية ، واستعادة التاريخ عن طريق رصد الفردية المطلقة ؛ بكل ما تمثله من ذاتية مغرقة ، أو متجانسة بتعبير (دلتاى) تتفاعل مع الكل الاجتماعى والحضارى . . لكن ذلك لا بد أن يتم فى إطار المنظومة الأساسية التى تتشكل منها حركة الحياة الفكرية والثقافية التى تصوغ العادات ، والتقاليد ، وبقية الأنماط السلوكية الاجتماعية .







الفعالية الحضارية الإسلامية بين التنظير والتطبيق

يقع بعض المفكرين المسلمين فى تناقض شديد بين مستوى شمول الإسلام والقرآن لكل شىء : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل : ٨٩]، ومستوى المطالبة القرآنية والإسلامية الملحة بالمشى فى الأرض والتفكُّر فى خلق السماوات والأرض، وفى النفس الإنسانية : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢١]، والمطالبة الملحة أيضا بطلب العلم عبر مساحة قرآنية تربو على سبعمائة آية، علاوة على الآثار النبوية القولية والفعلية .

ولو أننا تعمقنا فى القرآن وفى السنة النبوية لوجدنا الموازين معتدلة وواضحة بين مستوى «التفصيل والتنظير» الذى وضع الإسلام معالمه فى كل مجال من مجالات الفكر والحياة ؛ من خلال عدد من الثوابت والمعالم التى تحدد الفيصل، أو تحدد الفروق بين الواجب، والحرام، والمكروه، والمباح . . . والمستوى العقلانى التطبيقى الذى به وحده يزدهر التنظير ويُكسى عظمُه لحمًا، وتتفتح آفاقه وتتواصل معطياته عبر العصور !!

وكما يخطئ بعض المسلمين فى الفروق بين المستويين ؛ فيتصورون الاقتصاد الإسلامى مجرد الابتعاد عن الربا والاحتكار والغش ؛ والأخذ بالمضاربة، والمرابحة، والمتاجرة، ويتصورون الأدب مجرد مواعظ أو ضوابط أخلاقية ؛



كذلك يخطئ أعداء المسلمين حين يؤمنون بالتغير الدائم والحركة المستمرة، دون ثوابت، أو أصول، أو معالم ؛ تضع الإشارات الكبرى، وتوجه المسيرة البشرية في كل العصور إلى الطريق القويم الذى يجب أن يتجهوا إليه، وأن يبدعوا فيه ؛ مدركين ما ينبغى لهم وما لا ينبغى ؛ مما قد يعجز عقلهم عن إدراكه، ومما قد يدركونه فى مرحلة، بينما يغيب عنهم فى مرحلة أخرى ؛ ولهذا زودتهم العناية الإلهية به من خلال الوحى الصحيح، وهم بعد ذلك مطالبون بالإبداع فى مجال التطبيق، معتمدين على عقولهم وطاقاتهم، مستنيرين بالثوابت والأصول، مستجيبين ـ فى الوقت نفسه ـ لتوجيه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، مؤمنين بأن المعادلة بين التنظير والتطبيق لتحقيق الفعالية معادلة واضحة، لكن بعض المسلمين أضاعوا معالمها بين إفراط وتفريط !!

لقد درج كثير من المسلمين على معالجة تفسير القرآن وفقهه بطريقة فرعية وحرفية وجزئية . . . دون أن يتعاملوا معه بطريقة كلية شمولية، يستمدون منه القيم القرآنية المطلقة، والقوانين الثابتة، ومفاتيح التعامل مع سنن الله الكونية والاجتماعية . . . ومن ثم يستخلصون الإضافات الصالحة لتطوير التنظير !! ويا للأسف كان من نتيجة هذا أن انحرفت مسيرة المسلمين عن المنهج القرآنى المعرفى والتجريبى ؛ الجامع بين العقلية والمادية الحسيّة فى إطار محكم . . . وسيطر على فكرهم ـ فى كثير من العصور ـ المنهاج اليونانى، ولا سيما بعد أن تُرجمت كتب الإغريق بمؤازرة الدولة العباسية (الخليفة المأمون) فى القرن الثالث الهجرى . مع أن العكس ـ أى ترجمة المنهجية المعرفية القرآنية إلى اليونانية وغيرها ـ كان هو الصحيح، فنحن المسلمين المنطلقين من القرآن الكريم أقوم فكرًا، وأنْقى تصورًا، وأزكى عقيدة، وأقدرُ على قَدْر الله حق قَدْره، واحترام السنن الكونية والتاريخية ؛ لو بقى نهرنا الفكرى سليمًا لا يعكر صفوه شوائب وثنية أو عقلية منحرفة !!

إن التصور القرآنى للكون والإنسان والحياة هو أصدق تصور ظهر فى التاريخ بهذا الشمول، وهذا التوازن . . . إنه الدليل الأكبر على عظمة الخالق الذى يتطابق كتابه المسطور مع كونه المنظور !!



ومن المعروف أن قدْرًا كبيرًا من موضوعات القرآن وقضاياه يعالج ما يُعرف بالقصص القرآنى، أو تاريخ الأنبياء وحضاراتهم، وتاريخ الأقوام الماضين، من مندثرين، وممن بقيت لهم امتدادات وشواهد . . . وهذه المعالجة لم تلق هذا الاهتمام ليكون القرآن كتاب تاريخ، ولا لإثبات إعجاز القرآن التاريخى فحسب؛ بل قصد بها - إلى جانب ذلك - أن يستوعب المسلمون سنن الله، وأن يلتزموها، وألاّ يحاولوا القفز من فوقها، وأن يدركوا أن تمكينهم فى الأرض مشروط بالفقه بهذه السنن والتزامها فى الحركة التاريخية والابتعاد عن التواكلية والعفوية، أو ما يسمى بإسقاط التدبير !!

فالاعتماد على الله والتوكل عليه - بمعناهما الحق - يوجبان فقه المفاتيح والأساليب والوسائل التى خلقها الله - سبحانه - وجعلها قاسمًا مشتركًا بين كل الناس، ومعالم تدلهم على وسائل البقاء والتقدم والتعمير.

والقصص القرآنى يعطينا أيضًا - فى حركتنا التاريخية - ذاكرة ضرورية للحاضر والمستقبل . . . إنه (الحاسوب) الذى يغذّى الحاضر بالمعلومات الصحيحة المعتمدة على تجارب صادقة، ومن ثم يمكن استخلاص الطرائق الصحيحة لحركة المستقبل!!

والفيصل الأساسى بيننا وبين الماديين أننا نمزج بين الماضى والحاضر والمستقبل، ونراها نهرًا واحدًا دافقًا، يصعب وضع حواجز بين تيّاراته وأمواجه.

فالزمان كتلةٌ واحدة، ومصطلحاتنا البشرية المعروفة : الماضى، والحاضر، والمستقبل مجرد مصطلحات نسبية معرفية، لكنَّ سرعة الأمواج وقوتها تحول دون إقامة حواجز سميكة بينها؛ كما أن هذه الحواجز خاصة بنا نحن البشر، ولكنها بالنسبة لعلم الله لا قيمة لها، فالثلاثية الزمانية عنده - سبحانه وتعالى - سواء . . . ومن هنا نجد الحديث فى القرآن الكريم عن محتويات الجنّة، وعن تنعّم المؤمنين فيها، وكأنه رسْم للوحة مرئية ومشاهدة، لا تفصلنا عنها هذه الآلاف من السنين.

ونحن نلمح هذا المعنى فى أى حديث قرآنى عن الغيب، فهو حاضر فى تفاصيله ودقائقه تمامًا، كما أن هذا الغيب يجب أن يكون حاضرًا فى وعى المسلم ووجدانه حضورًا يصل إلى درجة اليقين الكامل، وإلا فقد الإيمان أول شروطه.



إن الإيمان بالغيب، واندماج هذا الغيب، فى رحلة الزمان كلها؛ لا بُدَّ أن يكون مرتبطًا بالماضى والحاضر والمستقبل، وكأنه جزء لا ينفصل عنها إلا بمقدار الحساب والجزاء (فى يوم الفصل - يوم القيامة)؛ هذا الإيمان هو الفيصل المكين بين المؤمنين والماديين الدنيويين (العلمانيين).

وهذا الغيب شىء مختلف تمامًا عن الأسطورة (الميثولوجيا) التى يحاول العلمانيون إضافتها إلى الغيب بينما هى وهم وخرافة، وليست كالغيب مستقبلاً محدد المعالم ينقله إلينا من يحيط بكل شىء علمًا، ويملك الماضى والمستقبل، ويستحيل عليه الكذب أو إخلاف الميعاد!!

لقد كان ممكنا - عندما كانت المنهجية واضحة - أن يتم استيعاب أسلافنا للفقه الحضارى والعلمى للقرآن الكريم عمليّا خلال قرنين من الزمان، بعد ظهور الإسلام؛ حيث تمكنت قواعد الدعوة فى الأماكن التى ساح الإسلام فيها. وقد كُنّا أهلاً لأن نجد على مشارف القرن الثالث الهجرى نظريات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ومفاهيم ومصطلحات محددة نقتحم بها عالم الحضارات الموجودة، ونقود أهلها بها إلى الحضارة الإسلامية...

لكنَّ تضخم «علم الكلام» وما أفرزه من تيارات جدلية عقيمة كان على حساب الفعالية الإسلامية فى علوم الحياة الأخرى، وأيضًا جاء الاتجاه إلى ترجمة علوم اليونان - بهذه الطريقة العشوائية، التى طبقها الخليفة المأمون، على مشارف القرن الثالث الهجرى - خطوةً غير حكيمة؛ بل غير منتظمة انتظامًا ينسجم مع البناء العام للرؤية والفعالية الإسلامية، فوقع الارتباك فى وقت كان من الممكن أن يكون بداية انطلاق عالمى إسلامى جديد.

وقد كانت المنهجية السليمة كفيلة - بعد هذين القرنين - بإغناء الحياة الإسلامية فى كل مجالات الإبداع الإنسانية، والثقافية، والعلمية؛ وكان كل قرن قادراً على أن يندفع فيه المسلمون بقدر من الفعالية؛ يمكنهم من أن يسبقوا كل الحضارات إلى عصر الفضاء والاتصالات!!

إننا لسنا إزاء محاكمة لمسيرتنا الحضارية، لكننا - حتى فى هذه الأيام - مطالبون باكتشاف عوامل الخلل فى هذا التاريخ، انطلاقًا من أننا مؤمنون بأهلية الإسلام

الدائمة للفعل الحضارى، وصلاحيته لقيادة كل زمان ومكان؛ بعد أن ختم الله به الرسالات، وجعله حجته الباقية، وكلمته الخاتمة إلى يوم القيامة. وإنه لضرورى أن تعتدل المعادلات كلها فى أيدينا، وأن تتوازن رؤانا بعد أن وجدنا أنفسنا فى هذا المحيط الحضارى المتدنى.

وإذا كنا نأخذ على أوروبا تركيزها على الفعالية المادية، وإهمالها للجوانب الإنسانية والأخلاقية، فإننا يجب أن نأخذ على أنفسنا تقصيرنا الشديد فى الفعالية المادية، واستهلاكنا لطاقتنا فى مجالات كلامية عقدية أو سياسية... لقد اختلّ الميزان فى أيدينا، كما اختلّ فى أيديهم... لقد شدّ كل منا الحبل بطريقة خطأ، وكانت مسيرتنا التى انتهت بنا إلى واقعنا المعاصر أكبر حاجز حال دون تفهمهم لنا... فما كان ممكنًا أن يتواضع الإنجليز ليفهموا ما عند المسلمين الهنود من أفكار عظيمة، مع أنهم يسوقون هؤلاء المسلمين الهنود سوق الأنعام، وما كان ممكنا للحملة الفرنسية التى جاءت بالمطبعة، وبالسلاح الحديث، أن يؤمن رجالها بأن لدى هؤلاء المصريين المتخلفين دينًا يحمل قيمًا حضارية هم أحوج الناس إليها... إن الموْقعين المختلفين للسيد المستعمر وللعبد المقهور لا يسمحان بالتحاور الفكرىَ ولا بالفعالية الحضارية، فإن القوة تعمى عن الحق، ومن هنا انتهت المدنية الأوروبية إلى نجاحات كبيرة فى مجال العلم والتقنية؛ مقطوعة عن خشية الله، وعن احترام إنسانية الإنسان؛ وعن مجرد التفكير فى التعاون مع الآخرين الضعفاء، على الخير الإنسانى العام!!

وإذا كان بعض المفكرين يرون أنه لولا الإسلام، الذى حوّل الطبيعة من معبود يُخْشى منه ويسجد الناس لشمسه ونجومه؛ إلى طبيعة مأنوسة موضوعة للبحث والتشريح والتسخير.. لولا هذا الإسلام - بهذا المنهج الجديد - لبقيت الحضارة الإنسانية الوثنية والكنيسة التى تحارب العلم هى المسيطرة على العالم... إذا كان هذا الذى يراه بعض المفكرين صحيحًا - وهو صحيح - فإن غيبة المنهج الإسلامى الرشيد فى البحث والتأصيل، بالإضافة إلى أوضاع المسلمين المتخلفة فى القرون الثلاثة الأخيرة قد أعطت أوروبا الفرصة لكى تؤمن بأنها قامت على سواعد أبنائها وحدهم، وبأنه لا يمكنها أن تكون قد استفادت من هؤلاء المسلمين المتخلفين!!

ولن يتغير الفكر الأوروبى فى تعامله مع الحضارة الإسلامية إلا يوم يظهر منهج جديد يفرض على العقل الأوروبى احترامه . . . منهجٌ بعيد عن الانهزامية الدونيّة ، والتسوّل ، باسم الحوار ، أصيلٌ فى انتمائه للإسلام ، منفتحٌ فى تعامله مع الإنسان والكون والحياة ، متفاعلٌ تفاعلاً متوازنًا مع كل الحقائق العلمية والنتاج الحضارى لها . . .

* * *

فى الآداب والعلوم والفنون - جميعها - يكون التطبيق قبل التنظير التركيبى !! فالتطبيق الذى يستلهم الجذور والأسس الكلية - بوعى أو من دون وعى ، شعورىٍّ أو غير شعورىٍّ - يسبق مرحلة التنظير بالمعنى العلمى المعروف للتنظير . . . ومن هنا لا بدَّ أن يتحرك عقلنا الأدبى والعلمى إلى الأمام فى مجال الإبداع . . . وصولاً إلى التنظير الكامل من خلال محاولات التطبيق المتنامية .

وعندما نتحدث عن ضرورة وجود رؤية أدبية وعلمية وإنسانية ملتزمة بمنهج الإسلام ، وبالانتماء للوعاء العربى الحضارى الإسلامى ؛ تتحاور مع الرؤية الأوروبية العلمية والفلسفية المستقاة من الفكر الحر (الليبرالى) ، والرأسمالى المنطلق من النظرة الأوروبية للكون والإنسان والحياة . . . عندما نتحدث عن ضرورة مثل هذه الرؤية ؛ فيجب أن يكون واضحًا فى أذهاننا أن الأصول الكبرى ، والفقه الواعى أو الفطرى بهذه الأصول لا يكفلان إيجاد تصور إبداعى تنظيرى كامل المعالم والقسمات - دون الفعالية الإنسانية - مع أنهما قادران فعلاً على تحريك السلوك الفردى والاجتماعى فى الاتجاه المنشود !!

لقد بقى المسلمون نحو قرن بعد ظهور الإسلام يعملون على نشر الإسلام ، وعلى نشر اللغة العربية ؛ منطلقين من الأصول ، ومن الوعى برسالتهم ، وكانوا فى سلوكهم النموذج الأصلى والأبقى لهذه الأصول . . . لكنهم لم يدخلوا ميادين التنظير والتقنين إلا بعد أن قدموا نماذج تطبيقية عملية . . . لقد كان عدل القضاة من خلال آلياته ووسائله التنفيذية أسبق من التنظير للقضاء ، وكان تطبيق الشورى أسبق من التفكير فى وضع «النظريات السياسية الإسلامية» فى فكر الماوردى أو



غيره. وكان تطبيقهم الاقتصاد الإسلامى فى حياتهم الفردية والاجتماعية ـ اعتماداً على الأصول ـ أسبق من التفكير فى إنشاء نظام «الخراج» أو غيره.

إن الأصول تشكل الوعى وتنقِّى الفطرة وتقدم الاتجاه العام، لكنها لا تسمح بتشكيل «النظرية» إلا بعد مزج الأصول بعالم الإنسان الواقعىّ ـ فى حالاته المختلفة ـ وبعد إعمال العقل فى ضوء التجارب البشرية ؛ وصولاً إلى الإبداع التنظيرى الذى قد يبقى آماداً متطاولة قابلاً للمراجعة والإخصاب !! ولا يمكن أن يكون التنظير بعيداً من التجربة الإنسانية والإعمال العقلى إلا إذا أريد به ـ وله ـ أن يكون مجرد قواعد تربوية أو وعظية تفتقد الروح التركيبية والنماذج العملية والفنية التى تعطى النظرية الروح، والمصداقية، والقابلية للاستمرار.

* * *

وحين قرأت للصديق الكبير الدكتور/ عماد الدين خليل حديثًا عن المدخل إلى «إسلامية المعرفة»[1]، يذكر فيه أن «المحور التنظيرى» هو المدخل الضرورى للمحور التطبيقى... خطر لى أنَّهُ يقصد بالمحور التنظيرى : ضرورة الوعى العميق بالأصول الكلية والمعالم العامة التى تمثل جوهر الرؤية الإسلامية للمعرفة بشتى فروعها... لكنى عندما واصلت للتعرف على وجهة نظره وجدته يكاد يقترب من بعض العناصر التى لا يمكن الحديث عنها إلا بعد وجود مستوى معين من التطبيق. إنه يطالب هذا المحور التنظيرى بأن يقدم للمحور التطبيقىّ «تعريف المصطلح، وضروراته الملحة، وتصنيف الحلقات الأساسية للمعرفة»، «وكذلك يمكن أن يتولى المحور التنظيرى تقديم وتصنيف المقترحات الضرورية التى تعين على تنفيذ العملية وتحويلها إلى أمر واقع ذى فاعلية مؤكدة، وقدرة ـ فى الوقت نفسه ـ على الاستمرار والانتشار»...

وما يقوله الدكتور/ عماد الدين خليل صحيح تمامًا فى بعض الفروع المعرفية التى تتمتع بنماذج تطبيقية قويّة فى تاريخنا، وذلك مثل المجالات الاجتماعية أو

(١) انظر : عماد الدين خليل : المدخل إلى إسلامية المعرفة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ص : ١١، وما بعدها، الطبعة الثالثة (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).



الفلسفية أو الاقتصادية . . . بيد أن الأمر فى الأدب ـ بأجناسه الحديثة من رواية وقصة، وأقصوصة، ومسرحية ـ لا يتمتع بهذا الرصيد، وما قُدِّم فى القرون الأخيرة من أعمال تطبيقية تعبّر عن التصور الإسلامى للكون والإنسان والحياة يُعدّ قليلاً جدّاً؛ ولذا فنحن فى حاجة إلى تعميق؛ تكتمل له الأدوات الفنية فى الأجناس الأدبية المختلفة حتى يصبح تنظيرنا قريبًا من الكمال.

وما يُقال فى الأدب يقال فى علوم الاقتصاد والاجتماع وشتّى المعارف؛ شريطة أن نكون واعين بقسماتنا الخاصة وبفروقنا الجوهرية عن الحضارة الغربية؛ من إيمان بالآخرة مع الدنيا، وبالله مع الإنسان، وبالغيب مع المحسوس؛ وإذا كان العلمانيون يعمدون ـ عن جهل أحيانًا، ومكر فى أغلب الأحايين ـ إلى إنكار «الله» و «الآخرة»، وإلى إذابة الجسور بين الأسطورة والغيب تشويهًا للغيب من جانب، وتعميقًا للدنيوية الحسيّة الرافضة للدين من جانب ثان، وتحطيمًا لمعنى الوجود الإنسانى المتميّز المسؤول من جانب آخر؛ فإننا يجب أن نقاومهم بالإبداع الذى يترجم رؤيتنا الإسلامية . . . تلك الرؤية التى تقدم العلاقة الموضوعية الكريمة المتوازنة التى تربط الإنسان بالله، والروح بالمادة، والمحسوس بالغيبى، والدنيا بالآخرة . . . ومن ثم تدين الرؤية الأحادية والتمزيقية والمادية العمياء للإنسان والكون!!

والحق أن منطق الإسلام يدحض هذا كله، ويؤكد المعنى والقيمة والمسؤولية لكل التاريخ البشرى؛ فى إطار خصوصية الإنسان وتميزه ومسؤوليته الحضارية والإنسانية . . . ويتضح هذا فيما ورد فى كتاب الله :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٧ ـ ١٨].

لكن هذا المنهج الإسلامى (الحضارى الإنسانى الشمولى) يحتاج إلى فاعليتنا وجهادنا وإبداعنا . . . !!

فهل يترجم المسلمون تصورهم إلى واقع عملى كما ترجم الماديون تصورهم إلى واقع عملى، سيطروا بأدواته على عقول الناس، وخدعوهم عن «الحق الكامل» و«الميزان الواحد» والمنهاج العلمى (العقلى التجريبى) المتعاون ؟!!

إن تحقيق هذا الإقلاع هو التحدى الذى ينتظره منهم الوعى البشرى كله، وتنتظره منهم الإنسانية التى تكاد تهوى إلى القاع ؛ بخضوعها للمنهاج المادّى الدنيوى الصراعى ؛ الذى لا مكان فيه للضمير، ولا للروح، ولا للعدل، ولا لأخوّة الإنسان لأخيه الإنسان . . !!

* * *





فى الحضارة المتفاعلة . . . كان القضاة، والمحتسبون، والدعاة، والعلماء، والمفكرون، والمهنيون، والتجار، والزراع، والأدباء، والشعراء، والفنانون، والمعلمون . . . وبعض الحكام، وبعض الوزراء، وبعض الشُّرُط، وبعض الحُجَّاب والرسميين . . . كان كل هؤلاء يصنعون الحضارة . . .

وكانت الحضارة تمضى بالدفعة الروحية والشرعية، مواصلة تقدمها فى مجاليها الثابتين :

ـ **مجال حفظ الحياة :** من خلال حماية النوع، والذات، والعرض، والمال، والعقل، والدين . . .

ـ **ومجال تحقيق تقدم الحياة وتطورها :** من خلال نشر التعليم، ومساعدة الفكر والإبداع فى المجالات المادية والمعنوية . . .

وكانت شريعة الإسلام القائمة على عقيدته وأخلاقه تنساب فى كل الخلايا الفاعلة فى الحياة، مثلما ينساب الضمير والعقل، ومثلما ينساب الماء والدم . . . فإذا ضعف تأثير الضمير قامت الحدود لتمنع الصدام بين الأجزاء الفاعلة فى تيار الحياة . . . «تلك حدود الله فلا تعتدوها» .

لم يكن مبدأ الاستيراد الاستهلاكى قد عرف بعد، وحتى وسائل المواصلات لم تكن تسمح بالاعتماد على الاستيراد فى الحياة . . . وكانت هذه الجريمة لم تصل ـ بعد ـ إلى أن تكون ظاهرة يعرفها الجميع، ويتحدثون عنها، بل ويسكتون عنها، ويستثمرونها لصالح بعض النظم الحاكمة . . .

بل هى ـ فى الحق ـ أكبر جريمة أن يعيش شعب مستهلكًا مستوردًا عالة على شعوب أخرى . . . إن مثل هذا الشعب لا يجوز أن يسمى نفسه مستقلا، ولا أن يطالب بحقوق، ولا أن يعتبر نفسه واحدًا من ركاب قطار الحضارة ولا صُنَّاعها، حتى لو تَغَنَّى بماضيه الزاهر وأسلافه الأمجاد ! ! . . . فعلى امتداد ما يربو على اثنى عشر قرنًا كانت شرائح الأمة الإسلامية تصنع الحضارة لتحقق حفظ الحياة، وتطور الحياة ! !

المجتمع الإسلامى
ودوره الحضارى عبر التاريخ

النسبة بين الأمة والدولة فى حضارتنا

لم يصنع الحكام حضارتنا، ولم يكونوا إلا جزءاً من أجزاء تاريخنا . . . لقد كانوا يركبون الموجات التاريخية المتلاحقة، لكن هذا (الزَّبَد) كان منفصلاً فى أكثر الأحايين عن القيعان . . .

فهنالك فى الأعماق . . . كانت تتفاعل القوى الصانعة للحضارة، وكان نور حضارتنا يمشى فى إطار قيمه وعقيدته، لا يأبه كثيراً بمن ركب الموجة، وإن اضطر - فى أحايين - إلى أن يهدئ من تفاعله، ويبطئ من سرعته، حتى يهوى بعض الراكبين الثقلاء !!

إن الذين ظلموا حضارتنا هم الذين وقفوا على الشاطئ يرصدون من يركبون الأمواج . . . ويتحدثون عن (نظم الحكم) و (أساليب انتقال السلطة) و(أنواع الظلم للرعية)، و (الخلافات بين الأسر الحاكمة) . . . !!

لكن الحضارات ليست هنالك فى هذا المستوى . . . وإلا لانتهت بعد قرن أو قرنين، ولباعها هؤلاء الراكبون بثمن بخس فى بعض مساوماتهم السياسية . . . !!

إن الحضارة فى الأعماق حيث يوجد (ما ينفع الناس)، وحيث تتعاون خمائر الحضارة فى معركة الإبداع وصياغة الحياة، كما يليق بإنسانية الإنسان . . .



وكانت النظرتان ـ العَجْلى والمتأنية على السواء ـ تؤكدان أن هذه المجتمعات الإسلامية (رسميّا) هى مجتمعات إسلامية ـ أيضًا ـ (عمليّا وواقعيّا) . . .

إنها لا تتنفس الإسلام فى رمضان، أو فى ذى الحجة وحسب؛ بل تتنفسه وتحتكم إليه وتنصاع لأحكامه وأخلاقه على امتداد العام كله . . . . إن الزمان كله يصاغ صياغة إسلامية ! !

وحول مكة والمدينة والقدس تلتف كل عواصم المسلمين ومدنهم، وقراهم؛ محاولة أن تقترب من هذه الأماكن المقدسة فى سلوك أهلها، وفى تزكية الضمير والوجدان الإسلاميين ! !

فالمساجد تقوم بدور الجذب حول (مكة) المحور الأساس، والعلماء والمسلمون يغرسون فى العقل والوجدان أن الأرض كلها مسجد، وأن الإسلام واحد، والرقابة الإلهية العليا، والشرعية الدنيا واحدة . . . وأن المسلمين أمة واحدة، وأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه . . . إن المكان فى عالم الإسلام يصاغ صياغة إسلامية ! !

* * *

عشرات الألوف من المساجد تنْداح حتى فى البلاد التى لا يسكنها إلا مئات من المسلمين . . .

ومئات الألوف من العلماء والمربّين ينتشرون فى العالم، ينسجون العقول والضمائر بمبادئ الإسلام . . . وكلهم يتكلمون لغة إسلامية واحدة نابعة من كتاب الله وسنة رسوله (القولية والفعلية) .

وحلقات القضاة التى فى المساجد أو خارجها تحكم حركة الحياة، وتعطى كل ذى حق حقه، وتؤصل التعاون، وتمنع الصراع، وتقف ـ فى سبيل تحقيق الغاية ـ حتى فى وجه الحكام ! !

ومحتسبون ودعاة هنا وهناك، رسميون وغير رسميين، يلبسون أثواب المحتسبين وشاراتهم، أو أثواب التجار والحرفيين والزراع . . . وكلهم يتعامل مع



الإسلام وكأنه المسؤول عنه، وعن تحقيقه فى حياة المسلمين، ونشره بين غير المسلمين.

وبهؤلاء وأولئك، وغير هؤلاء وأولئك، تمور الحياة، وتتفاعل عناصر الحضارة، ويظهر العلماء والحكماء، والرياضيون، والفلكيون، والفقهاء، والأطباء وغيرهم...

موسوعات ضخمة لم تتوفر لأية أمة، تُسمى بكتب التراجم والطبقات والرجال والأنساب؛ تضم بعض ما وصل إلينا عن أولئك العلماء الأعلام والدعاة إلى الإسلام.

إن هؤلاء هم أبرز صنَّاع الحضارة، بل إن هؤلاء هم الذين حموا ثغور الحضارة الإسلامية، وتحملوا الثمن الباهظ الذى دفعته الحضارة الإسلامية من جراء الانحراف الذى وقع فيه بعض الحكام.

كان هؤلاء العلماء والصناع والدعاة يتفاعلون فى مستواهم - صابرين محتسبين - وكان الآخرون يمضون فى طريقهم...

وكان بين المستويين خطوط تفاعل، وخطوط تصادم، ومناطق حياد!!

ففى العهود التى يدرك فيها جهاز الحكم والدولة أهمية الاحتكام للإسلام، وقيمة ثقافة الإسلام وحضارته؛ كانت الحضارة تتوهج متفاعلة أشد ما يكون التوهج، وكانت الأمواج الحضارية تصفو وتهدأ، وتنطلق إلى غايتها مترجمة قوة الإسلام وأصالته.

وحين يجنح الحكام إلى الانحراف والظلم والاستبداد؛ كان الصدام يقع، فى دائرة النفوس والضمائر فى أكثر الأحايين، وفى دائرة السلاح فى أقل الأحايين... لكن التيار كان يمضى ملتزمًا بالعقل، واعيًا بالمأزق، معتصمًا بمواقعه، مؤثرًا الفعل الحضارى على الصدام السياسى...

وثمة مناطق حياد كانت تمضى، وهى الأكثر والأغلب، لا تكاد تقترب من تأثير الحكام إلا فى بعض المعابر القليلة... فقد كان القضاة والدعاة والزهاد



والمفكرون والمخترعون يبتعدون - قدر الاستطاعة - عن مناطق الصدام، وكان الحكام - فى بعض الأحايين - هم الذين يحتاجون إليهم، ويسعون إلى أن يقترب هؤلاء منهم، ويُجْرون عليهم النفقات، ويُجْزلون لهم الأعْطيات !!

كانت هناك بالتالى أمة إسلامية . . . وكانت هناك مؤسسة حاكمة اسمها الدولة . . . أو بتعبير آخر كانت هناك (أمة دعوة) تعى رسالتها ودورها الحضارى، وتصوغ حياتها - فى هدوء - وفق شريعة الإسلام . . .

وكانت هناك مؤسسة حكم تقوم على حراسة الإسلام، وقد تبتعد أحيانًا عن تطبيق أحكامه.

والنسبة بين الأمة والدولة ؛ كالنسبة بين الأعماق والسطوح، وبين الجماعة والفرد !!

فالأمة الجماعة (جماعة المسلمين) أو (جماعة الدعوة) أو (أمة الدعوة) هى مجموع الأمة ؛ التى تزيد نسبتها على تسعة أعشار الفاعلين فى الحضارة، والدولة هى (أفراد) و (هيئات) أجيرة تمثل عُشْر الفاعلية الحضارية.

(وعلى طول تاريخ الجماعات الإسلامية - وعلى اختلاف أوطانها وأزمانها - ظلت الجماعة قائمة لها قوتها واختصاصاتها ومسؤولياتها إلى جانب الدولة. فمعظم المشكلات والمنازعات كان الناس يحلونها فيما بينهم بالتراضى والتفاهم أو التنازل المتبادل . . . ومن هنا نفهم كيف أن مدنًا كبيرة - كالفسطاط أو البصرة أو الكوفة - كان لها قاض واحد؛ ولم يكن هذا القاضى - مع ذلك - مرهقًا بالقضايا؛ لأن الناس كانوا لا يلجئون إليه إلا فى حالات الضرورة القصوى. وكذلك كانت المساجد ورعايتها دائمًا من اختصاص الجماعة، يبنيها الأثرياء أو الناس العاديون، وتُوقف عليها الأموال؛ لأن المساجد التى كانت تبنى بأموال الخلفاء والسلاطين كانت قليلة العدد، إلى جانب أنها كانت فى بعض الأحيان مساجد سلطانية؛ لم تخل من قصد إلى الزهو وإظهار الغنى والقوة، والرغبة الشخصية فى بقاء الذكر).



(ومثل ذلك يُقال عن التعليم ؛ فقد كان من شأن الجماعة، وقلما أنفقت الدولة شيئًا عليه فى شرق الدولة الإسلامية قبل العصر السلجوقى فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، باستثناء عطايا ؛ كان الخلفاء والسلاطين يقدمونها للظاهرين من أهل العلم على سبيل المكافأة. وكذلك كان الحال مع مواصلات البر والبحر)[١] .

إن هناك قضية خطيرة لم يفهمها بعض الناس، وبسبب عدم الفهم - هذا - أخطئوا فى فهم الموازين الصحيحة لتقويم حضارتنا الإسلامية . . . !!

إنهم لم يفهموا (العلاقة) ولا (النسبة) بين الدولة والأمة، أو الدعوة والدولة فى الحضارة الإسلامية، بل سقطوا فى تشريح حضارتنا بالمبضع نفسه الذى شرحوا به الحضارات الأخرى، ولا سيما الحضارة الأوروپية .

- ومن هنا جاء تقويمهم جائراً وفاسداً . . .

إن (الدولة) - فى التجربة الأوروپية - منذ ظهرت وحتى العصر الحديث تشير إلى سلطات مطلقة، ولكنها متمركزة ضمن حدود، بيد أنه لا يمكن التمييز بين مهمتها وطاقتها ؛ فالخدمات التى تؤديها تختلط مع الامتيازات التى تمارسها، وجميع أشكال العمل التى تحت تصرف الدولة هى أجهزة السلطة ووسائل الحكومة . والشرطة تحمى الأفراد، ولكن امتيازات وزير الداخلية كبيرة، والتعليم العالى ينمى المعرفة ؛ ولكنه يوجه الأفكار، والمساعدة الاقتصادية والاجتماعية التى توفرها الدولة الحديثة تنطوى على مركزية مالية متزايدة[٢] . . .

فهنا فى جسم الحضارة الأوروپية، وبالتالى تاريخها وحضارتها، كان دور الدولة هو دور الرأس والعقل والدم . . . إنها تنساب فى الكيان كله، وقد حاولت الكنيسة منافستها، والاشتراك معها فى صياغة المجتمع وتوجيهه، وقد نجحت فى ذلك حتى نهاية العصور الوسطى الأوروپية، وإن كانت قد منيت

(١) د. حسين مؤنس: عالم الإسلام، ص: ٢٥، ٢٦، طبع دار المعارف بمصر، طبعة أولى .

(٢) جاك ونديو دوفاير: الدولة، ترجمة: سموحى فوق العادة، منشورات عويدات بباريس بيروت، ص ٦ - ٧ (بتصرف) .





بفشل ذريع بعد فشل الحروب الصليبية ؛ التى جرت الكنيسة المجتمعات الأوروپية إليها . ومع بداية العصر الحديث أفل دور الكنيسة، وانفردت الدولة خلال القرون الأربعة الأخيرة بالقيادة والتوجيه .

وبعد صراع مرير تمكنت الدولة والشعب فى أوروپا من الوصول إلى صياغة خاصة بالحياة لا سيطرة فيها على الإنسان إلا للدولة . . .

لقد نُحِّى كل دور آخر . . . وأصبح القانون هو كل شىء، وأصبحت الدولة حارسة القانون . . . وابتعد الدين ـ وبالتالى الكنيسة ـ عن الحياة !!

* * *

لكن الأمر فى الحضارة الإسلامية مختلف كل الاختلاف . . . فالإسلام لا تحميه طبقة معينة ؛ بل هو مسؤولية الأمة كلها، وليست المساجد إلا دوراً للأمة كلها، وهى ذات وظيفة شمولية، والعلماء مجرد موجِّهين ومعلمين، لا يملكون أدنى سلطة . ولم يوجد فى الحضارة الإسلامية صراع بين مؤسسات خاصة بالدين، ومؤسسات خاصة بالدولة؛ بل كانت الأمة كلها تستنكر انحراف الحكام . . . وعندما تيأس من تقويم انحرافهم كانت تبتعد عنهم، وتتولى هى بنفسها صناعة حضارتها وحفظ عقيدتها، منددة ـ قدر الاستطاعة ـ بظلمهم، عاملة ـ فى حدود عدم الاشتباك معهم حتى لا ينهدم البناء ـ على إصلاحهم أو التخلص السلمى منهم .

إن النسبة هنا لنفوذ الدولة وآثارها كانت محددة ومرصودة ومعزولة . . . وحتى العلم لم يكن يؤخذ باطمئنان إلا من رجال الدعوة . . . لا من علماء السلطة . . . وكانت منزلة الحسن البصرى، وعبد الله بن المبارك، والليث بن سعد، والعز بن عبد السلام ـ وعشرات غيرهم ممن عرفتهم حضارتنا ـ أعلى منزلة من حكام عصرهم، مع عظمة بعضهم . . .

وهذه النسبة منذ قامت الأمة بأمرها، ووقع الانفصال بين السياسة والحضارة؛ لم تزد ـ كما ذكرنا ـ عن عُشْر الفاعلية الحضارية . . . وتحملت الأمةُ





المسلمة - مبتعدة قدر الاستطاعة عن حكامها إما ورعًا أو خوفًا - عبء الفاعلية الحضارية الباقية !!

أخطاء فى الرصد التاريخى والتقويم

كانت الأمة الإسلامية - جماعة وحكومة - شيئًا واحدًا فى عهد الرسول ﷺ، والراشدين . . . وكانت النسبة بالتالى مختلطة، فالحكومة هى الأمة، والأمة مندمجة فى الحكومة، يسعى بذمتهم أدناهم .

وجاء بنو أمية فقدموا خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين، ووسعوا دولة الإسلام بفتوحاتهم العظمى . . . ولكن بعض خلفائهم غلَّبوا (الدولة) و(أساليبها) و(مصالحها) على حساب المجتمع و(الأمة)، ونتج من جراء تقوية (الدولة) على حساب (الأمة) فى بعض الممارسات والأخطاء أن تحرك فى دولتهم الصراع العنصرى بين القبائل العربية؛ ليضربوا المضرية باليمنية، ثم اليمنية بالمضرية، وتسلط على الأمة مجموعة من الجبابرة؛ مثل الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، وآل المهلب، وضعفت العدالة فى توزيع المال العام .

ومهما كانت الأعذار التى تلتمس لهم فقد وقعوا فى أخطاء آذت الضمير الإسلامى، وجعلت وجدان الأمة يكاد ينفصل عن الدولة .

وهذه الممارسات وغيرها لم تُقْعد الأمة عن تحمل عبء الرسالة الإلهية والفاعلية الحضارية، وساعد على تقوية هذا الاتجاه أن التنظيم الاجتماعى للأمة الإسلامية كان لا يدع للحكومة مجالاً كبيراً فى حياة الجماعة، فكل ما نسميه نحن اليوم بالمرافق والخدمات كان من مسؤوليات جمهور الناس دون الحكومة . . .[1] .

وجاءت الدولة العباسية فمشت على خطى الأمويين؛ بل إنها فقدت بعض مؤهلات بنى أمية، كما فقدت بعض الأراضى الإسلامية التى كانت تحت بنى أمية أيضًا، وظهرت دول مستقلة عنها مثل : بنى رستم والأدارسة وبنى مدرار فى

(١) د. حسين مؤنس : عالم الإسلام، ص : ٢٠٩ .



المغرب، وبنى أمية فى الأندلس. . . وبالتالى ازدادت الأمة ابتعاداً عنها واعتماداً على نفسها، حتى فى ميادين الجهاد التى تقاعست فيها الدولة إلا فيما يمس سيادتها المباشرة، وتألقت جماعات (المطوعة) والمرابطين على الثغور، والمحتسبين بجهادهم. . . وبقى أمر الدولة محصوراً فيما يثبت قواعدها، وفى الحماية الخارجية لأرض الإسلام التى تقع تحت أيديها، وقد تعلم الناس كيف يديرون أمورهم ويحلون مشاكلهم دون حاجة إلى عون من حكومة، خصوصًا عندما ساءت الأحوال وتدهورت خلال العصر العباسى الثانى؛ ففى العراق، ومصر، والشام - مثلاً - تحول الحكم خلال القرن الرابع الهجرى وما بعده إلى أداة، وظيفتها الرئيسة جباية المال لسد حاجات رجال الدولة وجندهم (١) .

وقد تطورت الأمور فاتجهت الظروف السياسية إلى تسلط عناصر محترفة من الجند على الحكم كالخراسانيين الإيرانيين، ثم الأتراك، ثم المماليك. . .

ومع هذا التطور تخلى العرب عن لعبة الصراع على الحكم، واتجهوا إلى بناء الحضارة الإسلامية، فقدموا إنجازات طيبة للحضارة الإسلامية، بعد أن أضاعوا قرونًا كاملة فى المشرق والأندلس فى الصراعات الدموية تحت شعار أحقيتهم فى الحكم!! وارتفع شأن أصحاب الوظائف المدنية أو (أرباب الأقلام) - كما كانوا يُسَمَّون - حتى أصبحوا يناظرون الحكام والقادة والمحاربين، أو (أرباب السيوف). وعن هذا الطريق وصل الأفراد من أبناء الجماهير إلى نصيب طيب من السلطان والجاه، فإلى جانب أصحاب السلطان والقادة والجنود وحكام النواحى - وكلهم كانوا من الأجناس التى احترفت الحرب واحتكرت شؤون الحكم فى العالم الإسلامى - قام «الوزير» و «الكاتب» و«كتّاب ديوان الإنشاء»، و«أهل الحساب والشؤون المالية»، و«القضاة»، و«الفقهاء»، و«أهل العلم» و«الشيوخ»، وكان هؤلاء قابضين على نصيب كبير من زمام الحكم - فعلاً - وهذا النصيب هو الذى استطاعت أن تصل إليه الجماهير فى مختلف بلاد الإسلام (٢) .

---

(١) المرجع السابق: ص ٢١١.
(٢) المرجع السابق: ص ٢١٢.

وبهذا عرف أهل العلم من أبناء الشعوب الإسلامية كيف يشقون لشعوبهم طريقًا واسعة إلى القوة والجاه وسط تطاحن الأتراك والمماليك، ممن استأثروا بالحكم فى الجناح الشرقى لعالم الإسلام كله. وكان لوصول أهل العلم إلى ذلك الجاه أثره الطيب فى تحسين الأحوال العامة فى المجتمع، فهم الذين ظلوا يتمسكون بعقائد الإسلام وشريعته، وعلومه، ومبادئه، وأخلاقياته، وتراثه المعنوى، ويذكرون الناس بالمثل الإسلامى الأعلى الذى ينبغى السعى لإدراكه!![1].

بل إن غير المسلمين كانوا يجدون فى المجتمع الإسلامى الفرصة المواتية للعمل الحضارى أكثر مما يجدون فى أى مجتمع آخر فى عالم العصور الوسطى...

وعندما تحدث (ول ديورانت) عن العلوم عند اليهود ذكر أن العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود تكاد أن تنحصر كلها فى بلاد الإسلام، وذلك أن المقيمين فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى - كما يقول ول ديورانت - كانوا بمعزل عن جيرانهم؛ ولهذا لجئوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجيء مسيح ينقذهم مما هم فيه، وتلك كلها ظروف هى أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم[2].

أما فى العالم الإسلامى فقد وصل اليهود إلى أرقى المناصب، وكادوا يحتكرون حرفًا بأكملها لهم، واستفادوا من علوم المسلمين الطبيعية، وقد سيطروا على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها عام (١١٦٥م)[3].

لكن المشكلة أن بعض كتب التاريخ العام ظلمت أعلام حضارتنا، ولم ترصد حياتهم كما رصدت حياة الحكام والعساكر... وهذا صحيح، بل هذه هى مشكلة منهج كتابة تاريخ الأمة الإسلامية حتى اليوم.

وحتى كتب التاريخ الحضارى، فقد صيغت بطريقة مجملة، فلم تتبع حياة صناع الحضارة بالتفصيل الكافى، وقد نجد ترجمة عالم كبير عاش سبعين سنة، وقدم عشرات الكتب، وخرَّج أجيالاً عاملة مجاهدة صانعة، ترد فى مساحة لا

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢١٤.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٠٨، طبع مصر.

(٣) المرجع السابق ١٤/ ١٠٩-١١٠.

تزيد على صفحة أو صفحتين . . . وقد تكون المعلومات التى فيها مركزة على النواحى العادية التى يكاد يشترك فيها كل العلماء، دون أن تقدم هذه المعلومات رحلة معاناته، وخلاصة تجاربه، وأبرز آرائه، وإطاره الفكرى العام، وإضافاته العلمية والفكرية بطريقة فوق المستوى الإحصائى والببليوجرافى . . .

يضاف إلى هذا أن الكتب التى عالجت - بحق - تاريخنا الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، قد اتجه بعضها - على قلته - اتجاهًا متميزاً بتأثير بعض الضغوط الخارجية، فجاء كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى - مثلاً - تلبية لتوجيه شعوبى وعقدى ضد العرب، وضد أهل السنة، ولخدمة الحكم البويهى الشيعى الذى كان قد نجح فى التسلط على الخلافة العباسية .

لقد كان أبو الفرج الأصفهانى (ت ٣٥٦هـ) من أحفاد مروان بن محمد من بنى أمية، وكان يعيش تحت مظلة السيطرة البويهية على الخلافة العباسية . . . وخوفًا من أن يحسب على بنى أمية، ويقال إنه ناصبى يعادى آل البيت الذين يرفع شعارهم بنو بويه . . . لجأ إلى المغالاة فى حب آل البيت، وشوه تاريخ بنى أمية بكل ما يستطيع من وسائل، وقد كتب الأغانى بأمر من وزير معز الدولة البويهى (إبراهيم بن عبد الله بن زيد) الذى كان أبو الفرج من أقرب ندمائه الملتصقين به، وكان الناس فى ذلك العهد - كما يقول ياقوت الحموى فى ترجمته لأبى الفرج - يحذرون لسانه، ويتقون هجاءه، ويصبرون فى مجالسته ومعاشرته ومؤاكلته ومشاربته على كل صعب من أمره؛ لأنه كان وسخًا فى نفسه ثم فى ثوبه ونعله (. . .)[1] .

ومع ذلك فإن مؤلفات ابن قتيبة وابن عبد ربه، على ما فيها من تجاوزات - بالإضافة إلى كتب أخرى - كلها رصدت الحياة الاجتماعية؛ لكن كتب أبى الفرج تمثل - مع قدر كبير من التحفظات - أكثر مؤلفات رصدت الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للأمة الإسلامية فى عصره، وحسبنا أن نذكر مؤلفاته - غير الأغانى - لنعرف كيف أنه تطرق إلى موضوعات كثيرة غير التاريخ السياسى،

(١) ياقوت : معجم الأدباء، ص : ١٣، ص ١٠١، (ترجمة : ياقوت)، طبع بيروت.

فمن مؤلفاته : مقاتل الطالبيين ، وكتاب أخبار القيان ، وكتاب الإماء الشواعر ، وكتاب المماليك الشعراء ، وكتاب الأدباء الغرباء ، وكتاب أدب السماع ، وكتاب أخبار الطفيليين ، وكتاب مجموع الأخبار والآثار ، وكتاب الخمَّارين والخمَّارات ، وكتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار ، وكتاب دعوة النجار ، وكتاب أخبار جحظة البرمكى ، وكتاب جمهرة النسب ، وكتاب نسب بنى عبد شمس ، وكتاب نسب بنى شيبان ، وكتاب نسب المهالبة ، وكتاب نسب بنى تغلب ، وكتاب الغلمان المغنين ، وكتاب مناجيب الخصيان ؛ عمله للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له . وله بعد تصانيف جياد كان يصنفها ويرسلها إلى المسؤولين على بلاد المغرب من بنى أمية ، وكانوا يحسنون جائزته ، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل [1] .

وهناك قدر من التحيز الفكرى يمكن أن يوجَّه - بدرجة ما - إلى كتب الجاحظ ، مع أنها من أفضل الكتب فى التاريخ الاجتماعى الإسلامى .

وقد تكون أنقى الكتب وأوفاها فى هذا المجال ، كتب الرحالة والجغرافيين كابن بطوطة ، والبكرى ، وابن جبير ، وابن فضلان ، ومؤلفات الحسبة ، وكتب الفتاوى والفقه ، والكتب المتخصصة فى السياسة الشرعية ، والأموال ، والتجارة ، والمسالك ، وطبائع الملك ، وشؤون المعاش ، وأنواع الصناعات مثل كتب الأطباء العلمية ومؤلفاتهم فى الصيدلة ، والحيل والفلك . . . فضلاً عن كتب التراجم والرجال والطبقات التى تعتبر من أكبر المناجم التى يُغترف منها فى حقل التاريخ الحضارى للأمة الإسلامية . . . ذلك التاريخ المظلوم الذى يحتاج إلى أن تتجه إليه الجهود - فردية وجماعية - من جديد . . . إبرازاً للتاريخ الحقيقى للمسلمين ، وتحديداً للمكانة الحقيقية لشريعة الإسلام فى تاريخ المسلمين ، وفى صياغة حياتهم ، وصناعة تطورهم وحضارتهم .

ومع هذا الظلم الذى لحق بالتاريخ الحضارى للأمة الإسلامية ، ومع أن كتب التاريخ الإسلامى بصفة عامة ركزت على التاريخ السياسى الذى يتصل بنسبة قليلة محددة تمثل البنية الفوقية الحاكمة . . .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ص : ١٣ ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، (ترجمة : ياقوت) ، طبع بيروت .

ومع هذا فإن هذه الكتب لم تخل من تقرير لحقيقة الدور الذى قام به صناع هذه الحضارة من علماء ومفكرين، وإن جاء ذلك بطريقة غير مباشرة وإجمالية . . . فعندما نقرأ الكتب الأساس للتاريخ الإسلامى ـ ابتداء من الطبرى، وحتى تاريخ الجبرتى ـ نرى خط العلماء موازيًا ومضاهيًا لخط الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم.

وباستثناء الحكام الصالحين الذين لم يخل منهم عصر من العصور، ولا دولة من الدول كمعاوية، وعبد الملك، والوليد، وعمر، وهشام فى الدولة الأموية، وأبى جعفر، والمهدى، والرشيد، والمأمون، والمعتصم فى الدولة العباسية. وباستثناء الممتازين فى الأندلس مثل الداخل، وهشام الرضا، وعبد الرحمن الأوسط والثالث، والحكم المستنصر . . . والممتازين فى المغرب كبعض ولاة الأغالبة، وبنى رستم، والأدارسة، وبنى واسول؛ فضلاً عن معظم المرابطين وبعض الموحدين . . . وبعض ولاة بنى مرين، وبنى حفص، وبنى زيان . . .

وباستثناء بعض الممتازين ـ كذلك ـ وهم كثيرون فى السلاجقة، ثم كبار الأتابكة الحكام والعلماء مثل عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبى الكردى، ثم كبار المماليك من أمثال سيف الدين قطز، وركن الدين بيبرس، وسيف الدين قلاوون، وابنه الناصر محمد وغيرهم . . . وباستثناء بعض الحكام العثمانيين وعلى رأسهم محمد الفاتح، والسلطان عبد الحميد . . . باستثناء هذه الطبقة من كبار الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم، نجد أن معظم ما نال الشعوب الإسلامية من خير كان الفضل فيه راجعًا إلى أهل العلم، سواء من ولى منهم المناصب، ومن اكتفى بجاه العلم وقنع بركن فى دار أو فى مسجد؛ ومضى يدرس، ويؤلف، ويعلم الناس، ويخاطب أهل الحكم فى مصالح المسلمين، ويرد الأذى عنهم [1].

---

(١) د. حسين مؤنس : عالم الإسلام، ص : ٢١٤ـ٢١٥ .

العلماء العاملون هم قادة حضارتنا

لقد فهم العلماء فى حضارتنا أنهم مسؤولون عن الأمة، وأنهم داخلون فى أولى الأمر، ويؤكد ذلك أن التفسير الشائع فى حضارتنا لقوله - تعالى - : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، أن أولى الأمر هم «الرؤساء وأهل العلم»[١]، ومن هنا كان مشايخ الأزهر وأساتذة القرويين والزيتونة هم طلائع النهضة، وأبطال الاستقلال ودعاة الأصالة، والمحافظين على مصالح الناس.

وقد أنكروا على الولاة الظلمة، ووقفوا مع العامة، وكانوا سببًا فى إقالة ولاة وفى تثبيت آخرين[٢].

وبينما ارتبطت الكنيسة ورجالها فى التاريخ الأوروبى بالعداء للشعب، والوقوف مع السلطة ومقاومة الفكر والحرية، والتقدم؛ كان الأمر على العكس من ذلك فى حضارة الإسلام، فقد كان علماء الإسلام هم قادة الشعب، ورواد التحرر والنهضة الحقة . . . وكان طبيعيًا أن يكون الأمر كذلك؛ لأنهم جزء من الشعب لا يملكون سلطة كهنوتية، ولا يتفوقون على الشعب إلا بعلمهم وجهادهم الأكبر والأصغر . . . بينما الشعب كله (رجال دين)، وبالتالى فالشعب مثلهم يتحمل - قدر طاقته - جزءًا من المسؤولية، وله الصلاحيات الكاملة فى أن يحاسبهم، ويرفض عملهم وفتاواهم إن خانوا مبادئ الإسلام، وأصبحوا مجرد موظفين لدى السلطة، داخلية كانت السلطة أو خارجية.

وقد كان الشعب دائمًا يشعر بمسؤوليته عن الحضارة الإسلامية، وكان دائمًا يملك القدرة على التفرقة بين (علماء الإسلام) و (علماء السلطان)، و(فقهاء الحق)، و (فقهاء المصلحة) . . . وكانت بغداد فى عصر عظمتها تخرج كلها لتستقبل العالم الزاهد المجاهد عبد الله بن المبارك بدرجة أكبر مما تستقبل به خليفتها، حتى إن أم الخليفة عجبت للأمر وقالت: هذا هو الملك . . . إنه ملك لا تدفع إليه منفعة مالية ولا شرطة عسكرية !!

---

(١) انظر مادة «أمر» فى لسان العرب.

(٢) انظر جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر (نماذج من هؤلاء العلماء المجاهدين فى العصر الحديث).



كان نسيج المجتمع كله يبنى على الإسلام . . . وحتى الفئة الحاكمة، كان للإسلام وجود فى حياتها، على الرغم من تفلت بعضها فى بعض الأحيان . . . أما الشعب الذى يصنع الحضارة فقد كانت القوانين، والنظم والتقاليد التى تحكمه مستقاة من الإسلام .

وإذا كان من الضرورى للمجتمع الإنسانى، ولأفراد المجتمع من ضوابط يتقيدون بها، وتحكمهم بوصفهم كائنات اجتماعية ؛ فإن الضوابط والقوانين والأخلاقيات وشبكة العلاقات الاجتماعية التى كانت تحكم المجتمع الإسلامى هى الشريعة الإسلامية، ومهما تكن ضغوط بعض الحكام فإن المجتمع كان يحمى شبكته من سلبياتهم، ويقاوم بالوسائل الإسلامية المشروعة انحرافاتهم، وقد يتمكن من تعديل مسارهم، وتقويم اعوجاجهم، مثلما نجح العز بن عبد السلام فى إصلاح شأن المماليك، ومثلما نجح - قبله - رجاء بن حيوة من إصلاح شأن سليمان بن عبد الملك، وحمله على تولية عمر بن عبد العزيز، ومثلما نجح المنذر بن سعيد البلوطى - فى الأندلس - فى إصلاح بعض أخطاء الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث (الناصر) .

وإذا كان المجتمع الأوروبى قد خضع فى علاقاته لنوع من الميكافيللية، والمادية التى جعلته يستخدم الدين، والأخلاق، والمبادئ الإنسانية (وسائل) إلى غاية غير شريفة فى حقيقتها ؛ فإن المجتمعات الإسلامية قد ظلت تهيمن عليها المفاهيم الأخلاقية المنبثقة عن الشعور الدينى الصحيح، وظلت هذه المفاهيم هى المتحكمة فى عالم الفكر، والأخلاق والقيم، وهى الراسخة فى ضمير الشعب المسلم[1]، وبالتالى فالذين كتبوا تاريخ الإسلام من خلال النظرة الميكافيللية قد تاهوا وتاه معهم كل من تبعهم (. . .) فالعمل الحضارى - وبعض السياسى - ظل مرتبطًا بالشريعة [2] .

---

(١) عبد اللطيف شرارة : الفكر التاريخى فى الأندلس، ص : ٦٩ ، ٧٠ (بتصرف) نشر دار الأندلس، بيروت .

(٢) المرجع السابق، ص : ٧٠ ، ٧١ بتصرف .





العلم والعمل دعامتا العمل الإسلامى

وقد قام المجتمع الإسلامى - فى إطار الشريعة - على دعامتين أساسيتين تمثلان قوام التطور والبقاء . . . وهما :

- العلم . . .

- والعمل . . .

- والربط بين العلم والعمل هو الروح الحقيقية الفاعلة والمؤثرة . . .

- والعلم شمولى يضم ما ينفع الدنيا وما ينفع الآخرة . . . ولا شىء عند النظر الإسلامى الصحيح يسمى بعلوم الدين، أو علوم الدنيا ؛ فكل علم نافع هو علم دين وعلم دنيا، وكل علم ضار هو علم غير إسلامى، ولن ينفع الدين، ولن ينفع الدنيا، بل إن (العلم الواحد) قد يكون - وفق منهجية معينة - علمًا إسلاميّا، وبالتالى نافعًا للدين والدنيا، وقد ينقلب نفسه إلى علم غير إسلامى إذا خضع لمنهجية جدلية، أو جمد عند إطار معين، أو أخذ حجمًا أكبر من حجمه فى إطار منظومة المعرفة الإسلامية، وإشعاعاتها المحددة فى الحياة .

- إن علم الطب قد يكون علم دين عندما يلتزم بالمنهج والأخلاق والغاية وينفع الناس . . . بينما يصبح (علم الكلام)، أو (علم الفقه) علم دنيا إذا حاد عن المنهج وفقد أخلاق الإسلام وغايات الإسلام، ولم يعد نافعًا للناس ؛ بل أصبح تبديداً لطاقتهم، وترفًا فى فكرهم، ومركبًا ذلولاً لأطماع الدنيا وأهواء الحكام .

وفى ضوء هذا الوعى بأهمية العلم الشمولى الذى ينظر فى النفس والآفاق، ويقدر الله حق قدره . . .

وفى ضوء الربط بين العلم والعمل، والإيمان بأن العمل ضرورة لا مناص منها، وأنه داخل فى العبادة، وفى عموم الهدف الأعلى للحياة الذى يحدده قوله - تعالى - : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦]، وتمثلاً بسيرة الرسول ﷺ وصحابته الذين جمعوا بين العبادة والعمل والجهاد فى معادلة متكاملة منسجمة رائعة . . .



ـ فى ضوء هذا الوعى بقيمة العمل القائم على العلم، انطلق المسلمون يعمرون الكون، ويتفوقون فى الحرف والصناعات، ويزرعون ويتاجرون ويشتغلون بكل العلوم النافعة، أو بتعبيرهم الإسلامى «العمل الصالح» أى القائم على الصلاح والصلاحية، وبما أن العمل يستلزم لطبيعة أدائه معرفة الظروف والوسائل والإمكانات والغايات، ولا يستقيم له أن يكون صالحًا إذا كان ضربًا من الخبط فى الظلام أو الانسياح مع هوى أو وهم، أو عصبية [1]؛ لأنه يستلزم ذلك فقد التزم المسلمون فى عملهم ـ فى حدود الممكن البشرى ـ بالمواصفات الإسلامية للعمل الصالح.

وهذه واحدة من المعالم الرئيسة فى تفسير الإسلام للتاريخ، وفى المنظومة التى يقيم عليها بناءه للحضارة وضماناته لاستمرارها : إنها تتلخص فى أن يعمل الإنسان بوحى من العقل، وفى ضوء المعرفة، على تحسين المسير وتفادى السوء، والقيمة الحقيقية إنما هى للعمل الصادر عن فكر نير فى سبيل غاية شريفة . . . [2] إنه الوحى والعقل، والصلاح والصلاحية، والعلم والعمل؛ فى نسيج واحد. . . .

ـ ولقد كان لمفكرى الإسلام على امتداد التاريخ يد طولى وأساسية فى نشر هذا الاعتقاد السائد اليوم، وهو : (إن التاريخ البشرى الناشئ عن تفاعل عدد لا يحصى من العقول الإنسانية، ينبغى أن يكون خاضعًا لقوانين بسيطة يمكن أن تدركها تلك العقول) [3]، وبالتالى فقد كان لدى المسلمين نظرة عملية للتاريخ ترتبط بالفكر، وليست مجرد نظرة فلسفية هائمة أو حالمة، وهى نظرة عملية قائمة على ثوابت الوحى واجتهادات العقل.

وإذا كان القرآن كثيراً ما يضيف إلى (الذين آمنوا) وصف العمل الصالح (وعملوا الصالحات) فإن المسلمين قرنوا العلم بالعمل فى الناحية الروحية،

(١) المرجع السابق، ص : ٣٦ .
(٢) المرجع السابق، ص : ٣٧ .
(٣) المكان السابق .



وكذلك امتازوا بتطبيق النظريات الكونية على التجارب العملية، وكانت هذه الخصلة القويمة فيهم نفحة من نفحات دينهم، فلم يمض عليهم ردح من الزمن حتى أصبحوا أئمة العلم والعمل فى الأرض [1] ، وقد شهد لهم كبار الأجانب بهذه المكانة فقال العلامة الفرنسى (غوستاف لوبون) فى كتابه حضارة العرب :

«إن العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع، فقد أكسبت علومهم صنائعهم جودة عظيمة جدًا، وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك، فإننا نعرف نتائجها وآثارها، فنعرف مثلاً أنهم احتفروا المناجم، واستخرجوا منها الكبريت، والنحاس، والزئبق، والحديد، والذهب، وبرعوا فى الصياغة وصقل الفولاذ، وبرعوا فى كثير من فنون الصنائع براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن» [2] .

ـ ولم يتخلف المجتمع الإسلامى ـ بعد أكثر من عشرة قرون من التفوق ـ إلا حين انفصل العلم عن العمل، ومن ثم أهمل العلم . . . وأهمل العمل؛ أما خلال قرون ما قبل التبعية والوقوع تحت ضغط الغزو الفكرى ومشروعات الإبادة الحضارية، فقد كانت الروابط الإسلامية تحكم المجتمع الإسلامى (مع وجود الهنات البشرية) على مستوى المسجد، ومستوى الجيران، ومستوى الأرحام، ومستوى القربى، ومستوى العائلات والقبائل، ومستوى الأحياء فى المدن، ومستوى الشعور الإسلامى الذى ينتظم الأمة الإسلامية كلها . . .

ونسيج هذه الروابط تجمعها شريعة حاكمة، تقوم على العلم والعمل والوحى والعقل، والتعاون والتكامل، وليس التنافر والصراع .

ومن عجب أنه بينما لم يحسن بعض المؤرخين فهم تاريخ المجتمعات الإسلامية، ولا النظر الدقيق لمحركاتها وإيجابياتها، ولا الوصول إلى تحليل سليم لمكوناتها وعناصرها الحية . . . . ولا التأريخ ليوم واحد كامل من أيام فرد مسلم، أو عائلة مسلمة، أو قرية مسلمة، منذ صلاة الفجر وشروق الشمس، وحتى تنام

(١) محمد فريد وجدى: مهمة الإسلام فى العالم، ص: ١٩٥، طبع الأزهر.
(٢) نقلاً عن المرجع السابق، ص : ١٩٦ .



هذه الأسرة بعد صلاة العشاء . . . إنهم لم يفعلوا ذلك ، ويرصدوا نصيب شريعة الإسلام فى حياة المسلمين . . . أفرادًا أو جماعات . . . فى مستوى الالتزام الواعى ـ فى الحياة الاقتصادية ـ بالنظام الإسلامى فى المعاملات . . . وفى مستوى (المسجد) عبادات وثقافة وعلاقات اجتماعية . . . وفى مستوى الأسواق ، ودور المحتسبين فيها . . . وفى مستوى (الكتاتيب والمساجد) والنشاطات العلمية الموجودة بها . . . وفى مستوى المسلم ، وعلاقة الزوجة بزوجها والأبناء بآبائهم ، والأرحام ، والجيران . . . وفى مستوى الأحوال الشخصية ، وتأثيرها فى بناء البيت المسلم ، وفى صياغة أفراحه ونظام تكوينه للأسرة . . . وأيضًا فى إخضاع البيت المسلم لشريعة الإسلام فى شتى أحواله . . . عند الزواج ، وعند الخلاف ، وعند الموت ، وما يتبعه من ميراث إسلامى . . . وفى مستوى الأخلاق والروح العامة التى تحكم هذا المجتمع وتصوغ أطره وعلاقاته . . . إلا أنهم ذهبوا يحكمون على الحضارة الإسلامية من خلال رصد عاجز لشريحة واحدة ، لا ترتفع فاعليتها لأكثر من عُشْر فاعلية الشرائح الأخرى التى صنعت حضارتنا ، وهى شريحة الحكام . . .

بينما هذا ـ بصفة إجمالية ـ على مستوى المؤرخين والمنظِّرين المسلمين ، نجد كثيراً من المؤرخين الأوروبيين (المنصفين) قد أحسنوا رصد الحياة الاجتماعية وأثر الإسلام فيها ، واعترفوا بالمكانة الكبيرة والأساسية والقوية للشريعة الإسلامية فى حياة المسلمين خلال تاريخ الحضارة الإسلامية الطويل . . . يقول المؤرخ الكبير (ول ديورانت) : كان المسلمون كثيرى التفكير فى ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية ، وشريعتهم ، وحكومتهم قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتطلب الجزء الثانى من هذا الأساس الإيمان بالقرآن ، وبكل ما جاء به من أوامر ونواه ، والمسلمون الصالحون لا يعملون بما ورد فى القرآن وحده ؛ بل يعملون أيضًا بالأحاديث والسنن النبوية التى احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون ؛ ذلك أن المسلمين قد يواجهون على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جوابًا صريحًا فى القرآن . كذلك وردت فى القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول ، وتحتاج إلى إيضاح ، ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله



النبى أو الصحابة، وما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات، ومن أجل ذلك وجَّه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث، وأنشئوا مدارس للحديث فى مختلف المدن يلقون فيها دروسًا عامة فى الحديث والسنن النبوية (١) .

ويعزو (ديورانت) سبب إسلام الشعوب المختلفة إلى تسامح المسلمين وتمسكهم العملى أمامهم بدينهم، فيقول : وعلى الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأوائل، أو بسبب هذه الخطة؛ اعتنق الإسلام معظم المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عددًا قليلاً منهم، وكثيرون من اليهود فى آسيا، ومصر وشمال إفريقيا، فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة، وكان فى وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان، واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لسانًا لهم، ولبسوا الثياب العربية، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام، وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى؛ فى هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد، وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصًا واستمساكًا أنساهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين، وإندونيسيا، والهند، إلى فارس، والشام، وجزيرة العرب، ومصر، وإلى مراكش، والأندلس، وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة (٢) .

- وبعد أن يخلص (ديورانت) من خلال سرده التاريخى المطول المتعمق؛ ينتهى إلى رأى تاريخى مقارن فى الأثر الإيجابى الفريد للشريعة الإسلامية فى الحضارة . . . فيقول :

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ١٣ : ١١٦ .

(٢) المرجع السابق١٣ : ١٣٣ .



«ولا يسعنا إلا أن نسلم - مع بعض التحفظات - بأن الخلفاء الأولين من أبى بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية فى رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام فى التاريخ كله، ولقد كان فى مقدورهم أن يُصادروا كل شىء، أو أن يُخرِّبوا كل شىء كما فعل المغول أو المجر، أو أهل الشمال من الأوروبيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا؛ بل اكتفوا بفرض الضرائب. ولما فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين، وأيده الخليفة فى هذا الرأى وأمره أن يتركها فى أيدى الشعب يتعهدها فتثمر. وفى زمن الخلفاء الراشدين مُسحت الأراضى، واحتفظت الحكومة بسجلاتها، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها»[(١)].

ومع تقديرنا لما كتبه ديورانت، وما كتبه غيره من أمثال أرنولد توينبى (ت ١٩٧٥م) فى كتابه (موجز دراسة للتاريخ) وغوستاف لوبون (ت ١٩٣٢م) فى كتابه حضارة العرب [(٢)]، وآدم متز (ت ١٩١٧م) فى تأريخه لحضارة العرب والمسلمين فى القرن الرابع الهجرى (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى). . . فإن ما كتبه هؤلاء - ومن فى مستواهم - لا يرقى إلى ما كتبه سير توماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠م) فى كتابه الرائع (الدعوة إلى الإسلام). . .

ولعل محاولتى الدكتور حسين مؤنس فى كتابيه (عالم الإسلام) و (الإسلام الفاتح) هما - فى الجانب الإسلامى - المحاولتان القريبتان من المنهج الصحيح لتاريخ حضارتنا. . . وهما - ولا سيما ثانيتهما - تسيران على خطى محاولة أرنولد فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام. . . وليس فى تاريخ بعض الحروب، أو بعض الحكام، أو بعض صور النزو على السلطة من بعض قطاع الطرق والمزورين لإرادات الشعوب، والمزيفين لحقائق التقدم وقوانين التحضر !!

إنها رحلة طويلة. . . رحلة كتابة تاريخنا الحضارى، بعيداً عن المنطقة البشرية ذات الصورة المعتمة التى أتاحت الفرصة لبعض المغرضين كى يظلموا هذا

---

(١) المرجع السابق ١٣ : ١٥٠، وانظر موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوى، ص: ٥٤٤، ط لبنان.
(٢) انظر: مقدمة كتاب فلسفة التاريخ لعادل زعيتر، دار المعارف - مصر، ١٩٤٥م.

التاريخ . . حقًّا إنها منطقة مظلمة . . . لكنها محددة ، وثمة مساحات مظلمة تفوقها أضعافًا مضاعفة فى كل تواريخ البشرية . . . لكن تفرد حضارتنا أنها فى مساحتها الوضيئة الأخرى ـ الأكبر والأشمل ـ لم يستطع أن يصل أى تاريخ إلى مستوى إنسانيتها ورحمتها وعدلها ، وتوازنها ، وشعورها بالمسؤولية الحضارية تجاه البشرية .

ـ لقد كانت حضارة الرحمة ، والعدل ، والعلم ، والعقل ، والعمل ، والضمير ، والقلب . . .

ـ وبغير روح وعقل وعمل لن تقوم حضارة إسلامية ، ولا سيما فى عصرنا الحديث !!

ـ والتحدى الذى يواجهنا اليوم هو أن نعمل كما يعملون هناك فى اليابان ، وأوروبا ، وأمريكا ، وكوريا (عشر ساعات فى اليوم) . . . ونمزج عملنا المادى بعناصر حضارتنا الإسلامية بمعادلاتها المتفردة . . . وفى مشكاتها الربانية . . . ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور : ٣٥] .





الشريعة الإسلامية ومكانتها في تاريخ المجتمع الإسلامى

يظن بعض السطحيين أن تطبيق القيم الإسلامية قديمًا أو حديثًا ؛ يرتبط بدولة أو مجتمع أو شعب ملائكى . . . فكأن تطبيق الشريعة فى رأيهم مفتاح سحرى يلغى الجانب البشرى ، ويقضى على النوازع المادية والغرائزية . . !!

إن هذا قد يجوز بالنسبة إلى قلّة ، ذات فطرة واستعداد معينين ؛ لكن المجموع البشرى يعيش الصراع الداخلى بين الخير والشر ، ويرتفع ويهبط ، ثم يتوب ويرتفع ، ويخلط العمل الصالح بغير الصالح .

بيد أن هناك ضمانتين استحق بهما المجتمع الإسلامى ، وهذا التاريخ الإسلامى أن يكونا تاريخًا ومجتمعًا إسلاميًا ، وهاتان الضمانتان ترتفعان بهذا المجتمع عن مستوى أى مجتمع بشرى آخر .

الأولى : أن هذا المجتمع مرتبط بأصلين ثابتين لا يمكن تحريفهما عن موضعهما بتأثير سلطة فوقية عقدية (بابوية) ، أو سلطة عسكرية أو سياسية حاكمة . . . فالقرآن والسنة فوق عبث العابثين وجبروت المتجبرين . . . وهذه هى الضمانة الأولى التى انبثق عنها ـ فى مجال التطبيق والفكر معًا ـ أن أصبح محمد (عليه الصلاة والسلام) ـ صاحب السنة القولية والفعلية ـ هو الإمام النموذج لهذا التاريخ وحضارته الإسلامية . على المسلمين ـ إن كانوا مسلمين حقًا ـ أن يعيدوا عبر كل مراحل التاريخ تقويم حياتهم الفكرية والأخلاقية والإنسانية ؛



لتقترب من نموذج هذا النبى (القدوة العملية والقرآن المتحرك الحى) . . . وقد عاش سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) كل أطوار الواقع البشرى . . . فسالم وحارب، وتزوج وأنجب، وعاشر الأغنياء والفقراء، والخدم والعبيد والنساء، ومرض وعوفى، وباع واشترى، وعامل الصغار والكبار، ودخل الأسواق . . .

وبإيجاز قدم شخصية واضحة كل الوضوح تجمع بين البشرية والنبوة، تهتدى البشرية بالنبوة؛ ولكن تبقى النبوة فى دائرة العصمة، التى لا يطالب الناس بها، وتصبح البشرية المهتدية بالنبوّة مجالاً للاقتداء والسباق بين الناس . . .

أما الضمانة الثانية لهذا المجتمع الإسلامى : فهى الرأى العام - رأى جمهور الأمة - الذى يبقى - فى ضوء فطرته التى امتزجت بالشريعة - داعيًا للمعروف، ومنكرًا للمنكر، مهما كان السلوك مغلوطًا . . . ومهما كان ضغط بعض الحكام وبعض الأوضاع وبعض دعاة الإفساد؛ فالمجتمع المسلم يبقى منكرًا للزنا، وللخمر، وللربا، وللاستغلال، والشذوذ الجنسى، ولم يسمح قط - فى عرفه أو إجماعه - بإباحة شىء مما أباحته بعض الحضارات، وآخرها الحضارة الغربية؛ التى تبيح اللواط، والزنا، والربا، والخمور، والتفرقة العنصرية، واستنزاف ثروات الشعوب، والكذب على أنبياء الله، واستئجار عقول بعض المزيفين من أبناء الحضارة المغلوبة، وذلك لتشويه حضارتهم، والتجنى عليهم ! !

لقد كان هذا الرأى العام المسلم (ضمانة طبيعية) تعصم المسلمين من التفرق الفكرى والعقدى والتشريعى، ومن الضلال الأخلاقى - بصفة عامة - مهما استبد الجهل بالمسلمين، وكان من نتيجة هذا الرأى العام المسلم أن المسلمين الأوائل لم يقلدوا كل داعية - كما تفعل المجتمعات الغربية - «وإنما اختاروا - بوعيهم الإيمانى - من بين آلاف الدعاة ومئات المجتهدين عددًا محصورًا أولوهم الثقة، وانتظموا وراءهم، ونظموا أنفسهم، ولم يسمحوا - فى الإفتاء - بمجال للفوضى»[1] .

وفى ظل الثوابت والإجماع والحس الإسلامى العام، انطلقت الأمة الإسلامية فى رحلة صناعة تاريخها وحضارتها، تواجه كل عصر بما تحتاج إليه تحدياته،

(١) حسن الترابى : تجديد الفكر الإسلامى، ص: ٥٨، الدار السعودية للنشر، ط٢/ ١٤٠٧هـ بتصرف .





وتزودها الثوابت بالأسلحة، ويحكم حركتها الرأى العام، وكانت تفرق دائمًا بين مجالى النصّ والرأى، والشريعة والفقه، وما يقبل الاجتهاد وما لا يقبله . . . ومعلوم أن التطبيق إنما يأتى تلبية للواقع العملى، ولما كانت الحالات الاجتماعية لا تتكرر أبدًا فى التاريخ؛ إنما تتشابه مجرد تشابه، فإن أى حكم تطبيقى فى حالة مضت، وليس من شرع الله ولا من عمل رسول الله ﷺ؛ إنما يصلح للاسترشاد به فى الحالات المشابهة، التى تعرض للأجيال المتجددة، ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق؛ لأنه مجرد رأى بشرى فى شريعة الله، وليس جزءًا من الشريعة الثابتة الصادرة من الله [(١)].

فهكذا كان الميزان ثابتًا . . . وحول هذا الميزان نشأ فى كل عصر مجتهدون، وأئمة عرفنا بعضهم؛ لكن أكثرهم لا يعرفهم إلا أهل الاختصاص . . .

أما على مستوى ارتباط التاريخ الإسلامى - بصفة عامة - بشريعته؛ فإن هذا الارتباط هو الذى صنع نسيج العلاقات الاجتماعية فى شتى المستويات والتعبيرات، دون أن يعنى ذلك جمودًا عند أشكال معينة؛ بل إن تنوع المجتمعات، وتغير العصور الذى هو الترجمة الصحيحة لصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان . . هذا التنوع قد مكن المسلمين - فى ظل الثوابت والرأى العام بحسه الإسلامى - من أن يبدعوا أنماطًا حضارية مختلفة الشكل والتعبير؛ لكنها ذات روح واحدة، وإن الصور التاريخية للمجتمع الإسلامى لا تحدد ولا تستوعب كل الصور الممكنة للمجتمع الإسلامى، فلكل جيل أن يبدع نظمه الاجتماعية فى حدود المبادئ الإسلامية، وأن يلبى حاجات زمانه باجتهادات فقهية قائمة على الأصول الكلية للشريعة، على شرط اتباع مناهج صحيحة فى الاجتهاد، والاتفاق بين جمهور فقهاء الأمة الإسلامية فى كل جيل؛ بحيث لا تدع الأمر فوضى لكل من شاء كيف شاء[(٢)].

---

(١) سيد قطب: نحو مجتمع إسلامى، ص: ٥٢، دار الشروق، ط٨/ ١٩٨٨م - مصر.
(٢) المرجع السابق، ص: ٥٢.





لقد كان المجتمع الإسلامى إسلاميّا مرتبطًا بالشريعة، ولو لم يكن كذلك لظهر فيه مجتهدون يبيحون ما حرم الله، كما وقع فى المجتمعات الغربية؛ التى أباحت زواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، وتقنين الشذوذ الجنسىّ، ودعوة جمعياته . . . وهى المجتمعات التى يخطئ بعض المؤرخين ويطلقون عليها (مجتمعات مسيحية) . . . فعلى الرغم من الثروة الفقهية الإسلامية الهائلة، لم نجد مذهبًا فقهيّا - أو مجتهدًا ما - يبيح زواج الرجل بالرجل، كما باركت المجتمعات المسماة بالمسيحية العلمانية ذلك، ولم نجد أى مذهب فقهى - ودعنا من الخارجين على الإسلام، أو المأجورين من قبل دين آخر، أو نحلة أخرى - يبيح الزنا، أو الربا، أو الخمور، أو الدعارة الرسمية !!

ومن البديهيات أن المسلمين عاشوا حياة اجتماعية عبر أماكن شاسعة، وبصورة كثيرة، وأن هذه الحياة الاجتماعية قامت على نظم أسرية، وعلى عادات وتقاليد، وعلى أنماط من العلاقات الموجهة من قبل المبادئ المسيطرة . . . وقد كانت لهؤلاء المسلمين بالتأكيد نشاطات يتكسبون منها - زراعة أو صناعة أو حرفًا أو تجارة، أو مهنًا عقلية وثقافية - كما كان لهم بالضرورة أسواق للتبادل والبيع والشراء !

وفى تلك العصور ونتيجة تخلف المواصلات كان مستحيلاً أن تعيش أمة عالة - فى أساسات حياتها - على أمم غيرها؛ ولذلك كان على المجتمع الإسلامى أن يعمل، وأن يكفى نفسه على الأقل، وإلا تَعرَّض للفناء، ولقد بقى المجتمع الإسلامى - على الرغم من كل ما وقع فيه من انحرافات - بعيدًا عن صورة الإقطاع الأوروبى الذى يملك فيه الإقطاعى الأرض ومن عليها من عبيد الأرض؛ الذين لا يملكون حق الانتقال إلا بإذن السيد، كما كان الحال فى العصور الوسطى، وكان الذى حماهم من «حتمية» الإقطاع - ماركسيا - تحاكُم ذلك المجتمع إلى شريعة الله، برغم كل الظلم الناشئ من تجاوز بعض حكامهم، فيما يتعلق بأشخاصهم لحدود الله؛ ولكن الناس - فى ظلهم - يتحاكمون فيما بينهم بشريعة الله [1].

---

(١) محمد قطب: حول التفسير الإسلامى للتاريخ، ص: ١٤٥، نشر المجموعة الإسلامية - السعودية، ط١.



وقد بقى المجتمع المسلم ـ بالرغم من كل ما وقع فيه من تجاوزات ـ مجتمعًا يحرص على نشر العلم، ويفتح المدارس، ويوقف عليها من الأوقاف ما يكفل للمعلمين والمتعلمين معاشهم من سكن وملبس ومطعم، وذلك قبل أن تنهض أوروپا نهضتها وتعرف قيمة العلم.

وبقى المجتمع ـ رغم كل انحرافاته ـ نظيفًا إلى حد كبير من الفاحشة الخلقية، بسبب التزامه بتعاليم دينه فى أمر الحجاب، ومنع الاختلاط والتبرج، وفى أمر الزواج المبكر، وبقى مجتمعًا متآخيًا متكاملاً مترابطًا . . . يخرج المسلم فيه من المغرب حتى يصل إلى إندونيسيا لا يوقفه حاجز واحد من حواجز الحدود السياسية أو «القومية» أو «الوطنية» . . . فقد كان فوق كل ذلك !!

وبقى ـ برغم كل ما اعتوره من اضطراب الأرض عند ضعف سلطان الدولة ـ أقل مجتمعات الأرض جرائم، وأكثرها طمأنينة وأمنًا وبركة [1].

وكان للمرأة المسلمة مكانها ونصيبها فى صناعة هذه الحياة الاجتماعية فى إطار الشريعة الإسلاميةالتى تؤكد على أن بناء الإنسان ـ رجلاً أو امرأة ـ هو أول الأبنية فى صناعة الحضارة، وأن التضحية بوظيفة بناء الإنسان ـ عن طريق هدم الأسرة ـ تمزيق للبناء الاجتماعى كله، وقد ضمت كتب التراجم والطبقات، وأعلام النساء ما يؤكد وجود المرأة فى الحياة الإسلامية وجودًا بنَّاءً تحكمه شريعة الإسلام.

ونحن لا نريد أن نُسهب فى الحديث عن موضوع (الرق) والموالى بصفة عامة، إلا أننا نستطيع القول بأن المجتمع الإسلامى كان مجتمع أحرار، وأن باب الحرية كان مفتوحًا أمام كل من يشعر فى نفسه بقدرته على تحمل أعباء الحرية ومسؤوليتها، وذلك عن طريق (حق المكاتبة) الذى يذهب بعض الفقهاء إلى أنه حق للعبد، وأن على السيد أن يستجيب للرقيق متى طلب المكاتبة، وأن على المجتمع الإسلامى أن يساعد العبد فى الحصول على حريته !! وأن يدفع له من المال ما يعينه على تحقيق ذلك، كما جاء فى آية : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٤٦ .

الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

لقد حرر الإسلام الإنسانية كلها نفسيّا وفكريّا وتشريعيّا؛ عندما جعل العبودية لله وحده، وأرسى الحقوق الإنسانية العامة.

فلقد كان العبيد يقفون مع السادة فى المساجد سواء بسواء، وقد استطاعت أعداد كبيرة منهم أن تحتل مناصب رفيعة؛ بل أن تشكل دولاً خدمت الإسلام كثيراً، وأن تكون جيوشًا دافعت عن عقيدة الإسلام وبلاد المسلمين فى معارك خالدة.. وهذا يؤكد ما قلته من وجود أرضية فكرية ونسيج نفسى وأخلاقى وتشريعى يسود هذا المجتمع، بصرف النظر عن الوظيفة الاجتماعية للطبقات المختلفة!!

وفى إطار هذه الحياة الاجتماعية الشاملة والعادلة كانت للمسلمين مساجدهم التى كانت تقوم بدور قائد، ولم تكن مجرد دور للعبادة؛ إذ إن هذا المفهوم الذى يؤدى إلى (الرهبنة) والانعزال أو الانسحاب لم يعرف فى الإسلام، لا فى داخل المسجد ولا فى الحياة الاجتماعية كلها... فالمسجد يتفاعل مع الحياة، والأرض كلها مسجد تخضع لقيم الإسلام، وتهدف إلى عمارة الأرض؛ لتحقيق عبادة الله، ونشر عقيدة توحيد الله فى الأرض... وعندما نريد الحكم على مدى إسلامية هذه الحياة الاجتماعية - أو الحكم بعدم إسلاميتها - فإننا يجب أن نقوم «بتفكيك» شتى النشاطات والعلاقات الفردية والأسرية والاجتماعية العامة... أى أننا - بإيجاز - يجب أن نرصد المجتمع الإسلامى والناس الذين يعيشون فيه فى كل أوضاعهم وبكل شرائحهم، مسلطين الضوء على شبكة العلاقات الاجتماعية فى شتى أحواله؛ من جد وترويح وحزن وفرح وسلام وخلاف وزواج وطلاق... إلى آخر كل الخيوط المشكِّلة لنسيج الحياة الاجتماعية.

وفى الحياة الاقتصادية - لكى يكون حكمنا موضوعيا كذلك - يجب أن نرصد مدى تمثيل المجتمع الإسلامى لأبواب المعاملات كلها، ونقيس ما كان سائداً من

النشاطات الاقتصادية على أحكام المعاملات الإسلامية، فمثلاً: هل كان المجتمع الإسلامى فى عصوره المختلفة يخضع لسيادة الربا؟ أو أن الربا كان - ككل صور الشذوذ - كان سلوكًا منبوذًا فرديًا يقاومه المجتمع؟

لقد كان المجتمع الإسلامى - إذن - مجتمع (القرض الحسن)، والتكافل الاجتماعى (ونلاحظ هنا ظاهرة الحبوس والأوقاف التى امتاز بها المجتمع الإسلامى).

هل كانت الزكاة فقط هى الواجب الذى يؤديه المسلم، أو أنه كان يؤدى واجبات كثيرة مثل حقوق الجيران، وحق الماعون، وحق الضيافة، وحق ابن السبيل فى الإيواء، إلى آخر هذه الحقوق؟

وهكذا نتدرج إلى شتى النشاطات الاقتصادية والمالية والاجتماعية لنقدم الرأى المحايد فيها.

ولعلنا نتساءل هنا: لماذا لم تظهر - ولم تنجح - كل صور الشيوعية أو الاشتراكية فى العالم الإسلامى؟ بينما ظهرت أو انتشرت فى المجتمعات الغربية، وكادت تجتاح الغرب كله لولا أن بادر إلى تحقيق صور من التكافل والضمان وحقوق الإنسان سدت الباب فى وجه الشيوعية، وأطلقت الإنسان إلى عالم العلم والعمل والإبداع؟ . . . أليس قيم تحقيق التكافل والضمان، وحقوق الإنسان هى التى حالت دون وجود صراع اجتماعى أو اقتصادى فى المجتمع الإسلامى على النحو الذى ظهر فى حضارات الإغريق والرومان وأوروبا الحديثة؟!

ولكى نحكم على الحياة الثقافية والفكرية والتعليمية؛ يجب أن نقوم بعملية التحليل نفسها، فنتتبع كل الخلايا العلمية والتثقيفية؛ بدءًا بالدور والكتاتيب، وأروقة المساجد، ومن ثم المدارس النظامية، والجامعات، والرباطات، والمكتبات العامة والخاصة.

إن الأمر ليس عملاً هينًا ولا بسيطًا، ويجب أن يجتهد المؤرخون فيه، كما اجتهدوا فى استقصاء الوقائع العسكرية، وحياة الساسة، وكل ما صغر من

«أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» [1]، وغيرهم ممن بويعوا بعد الاحتلام !!!

لقد قدمت الشرائح المختلفة ما تستطيع من جهد، فأفرزت لنا كيانًا مستقلاً اسمه (الحضارة الإسلامية) . . . وقد قام المسلمون أنفسهم ـ على نحو ما ذكرنا ـ بنقد مصادرهم ومؤرخيهم؛ بهدف الوصول إلى الحق، وقد قاموا بهذا النقد وفق مبضع جرىء قوى، لا يخشى فى الحق لومة لائم . . وقد استطاعوا ـ بهذا المنهج ـ أن يصححوا مفاهيمهم وسلوكياتهم، وأن يحموا سيرة نبيهم ﷺ وسنته القولية من كل أوهام يريد المغرضون والأعداء إقحامها لتشويه المثل الأعلى والقدوة وتضليل منهج المسلمين.

كما أن مصادر كثيرة ـ لم تأخذ حقها من الدراسة والإفادة بعد، وقد ألمحنا إلى بعضها؛ ككتب الطبقات والرحلات والجغرافيين والأدب والفقه ـ قد قدمت أنماطًا ونماذج من الحياة الاجتماعية والاقتصادية . . . وهى تحتاج إلى أن تصبح هى وغيرها من كتب الحضارة ـ قبل كتب السياسة ـ مناط البحث التاريخى، حتى نكتشف ـ بوضوح ويقين ـ كيف أن الشريعة كانت تحكم هذه الحياة الإسلامية المهيمنة والصانعة لنسيج الحياة، وشبكة العلاقات.

ومن الجدير بالتوضيح؛ أن ما يفعله بعضهم من ربط مستوى التزام الساسة بالإسلام بالتزام المجتمع ـ ومنهم مدرسة الأستاذ «محمد أركون» ـ إنما هو ارتباط فى غير موضعه . . . ولو لزم وجود هذا الارتباط فى مسيرة الأديان والعقائد لما عاش أى دين . . .

ولكان اليهود ـ مثلاً ـ قد ذابوا فى الشعوب الأخرى؛ إذ إنهم قلما قامت لهم دولة فى التاريخ . . ومع ذلك تحملوا الاضطهاد والاغتراب، وبقوا حتى اليوم يعلنون هويتهم الدينية، حتى فى اسم الدولة التى استطاعوا تسخير القوى الكبرى لإنشائها. وهى «إسرائيل» بل ربما كان الاضطهاد السياسى دافعًا إلى مزيد من التماسك والالتزام.

(١) اسم كتاب المؤرخ الكبير لسان الدين بن الخطيب.



وفى التاريخ الإسلامى كانت رغبة المجتمعات الإسلامية الدائمة هى الالتزام بالإسلام والتمسك به « إنها ما استسلمت بسهولة لتقاليد الحكام؛ بل شقت طريقها المستقل بمواجهتهم، وعملت جادة من أجل إعادتهم إلى جادة الصواب»[١] . . .

وعندما كانت تعجز؛ فإنها كانت تقاوم بالفعل الحضارى، فيعمل الدعاة والفقهاء والمحتسبون على إنكار المنكر ومقاومة مفاسد السياسة، ويتطوع المجتمع المسلم ببناء المؤسسات الإسلامية التى تغنيه عن الحاكم، ويحاصر بها أهواء الحكام المنحرفين، ومعظم المساجد والكتاتيب والأوقاف الخيرية كانت تقوم على أكتاف الشعوب المسلمة . . . وما زالت حتى اليوم فى أكثر بلاد الإسلام !!

وعبر عصور الحضارة الإسلامية المختلفة كان المجتمع الإسلامى - اعتماداً على بنائه للفرد والأسرة المسلمة والتربية والتعليم الإسلاميين - يتحرك فى عملية جهاد مستمر لصياغة حياته وفق شريعة الإسلام، ماضيًا على جهات ثلاث متناغمة ومتكاملة : حركة ذاتية عميقة؛ لتمكين الإنسان الفرد من المزيد من التحقق بالإيمان، وحركة جماعية أفقية؛ لتمكين المجتمع المسلم من حماية نسيجه وإحكام حبكته، وحركة صوب الخارج تحمل بعداً عقديّا؛ يتوسل بالسياسة أو القوة العسكرية حينًا، وبالفعل الحضارى والكلمة المؤمنة الهادية فى أكثر الأحايين[٢] .

وبالمنظور الشمولى نفسه نرصد الإطار العام لحركة التاريخ الإسلامى وحضارته، من خلال فاعلية الإنسان المسلم وإبداعه، فنجد هذا الإطار تنتظمه مراحل أساسية كبرى هى[٣] :

---

(١) عماد الدين خليل : ملاحظات فى تاريخ المجتمع الإسلامى، ص : ٨، نشر مكتبة الثورة - القاهرة.
(٢) المرجع السابق، ص : ٥، بتصرف.
(٣) محمد عبد الهادى أبو ريدة : روح الحضارة الإسلامية ومميزاتها، دراسة نشرت ضمن أعمال قسم الثقافة الإسلامية فى جامعة الإمام (١٤٠٣هـ)، بتصرف.



١ ـ مرحلة تكوين الإنسان المؤمن (النموذج)

لقد تم فى عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تكوين المسلم تكوينًا دينيًا شاملاً لشؤون الحياة الدنيا، وهذا العهد النبوى (عهد الصحابة رضى الله عنهم) هو أساس كل تحضر إسلامى، وفى كثير من مراحل التاريخ الإسلامى تمت محاولات ناجحة لبناء إنسان مسلم يقتفى أثر النموذج، وكان لهؤلاء دور كبير فى إثراء الحضارة الإسلامية، ونهوضها فى محاط كثيرة.

٢ ـ مرحلة تبليغ أساسات الحضارة الإسلامية للأمم

وهى مرحلة الفتوحات الكبرى؛ التى كان العصر الأموى قمتها، وقد تكرر نموذجهم فى التاريخ على يد المرابطين فى المغرب، وبنى أمية فى الأندلس، والمماليك والأكراد والعثمانيين فى بعض عصورهم.

٣ ـ مرحلة اللقاء الحضارى بين الإسلام وبين حضارات الأمم

وقد تفاعل المسلمون مع حضارات غيرهم، وسرعان ما تفهموا روح الحضارات الأخرى وعناصرها، وقاموا ببناء حضارة روحها وجوهرها الإسلام، ورداؤها كل مظاهر التحضر الإنسانى، وهذا تحقق فى العصر العباسى حتى أواسط القرن الرابع الهجرى ـ مع بعض الملاحظات على عصر المأمون ـ وهذا النموذج تكرر فى فتح الإسلام للهند، وفى التفاعل الإسلامى الواعى (وليس العلمانى) مع حضارة أوروبا المعاصرة.

٤ ـ مرحلة الإبداع مع التنوع

وهى تمتد حتى أوائل القرن الثامن الهجرى، وإن كانت قد عاقتها غزوات المغول وما أعقبها، وفى هذه المرحلة كان التأثير الكبير لحضارة الإسلام فى الحضارة الغربية الأوروبية، وهى التى لم تزدهر إلا بعد المعرفة بالإسلام وحضارته[1].

٥ ـ مرحلة الحضارة عند مختلف شعوب الإسلام

فى فارس والهند ومصر وفى الدولة العثمانية.

---

(١) الموضع السابق.



٦ ـ مرحلة الركود والتخلف تحت سيطرة الغرور الحضارى وقهر الاستعمار.

٧ ـ مرحلة النهضة الحديثة فى مختلف بلاد الإسلام

فى القرنين التاسع عشر والعشرين وما تبع ذلك من ظهور الصحوة، وبروز الرؤية الإسلامية والمناهج الإسلامية لكتابة التاريخ، ولتأصيل علوم الاجتماع والتربية والنفس والإعلام والأدب؛ بمنظور حضارى إسلامى متميز [1].

ومرة أخرى، ونحن نقدم نظرة تقويمية أخيرة لتاريخنا الإسلامى وحضارته... بعد تقديمنا بعض التفصيلات الضرورية عن العصور التى «عَلْمَنَها» الأستاذ/ محمد أركون بعدد من الأسطر!!

مرة أخرى ـ ونحن نقدم هذه النظرة التقويمية العامة لتاريخنا الإسلامى، وحضارتنا الإسلامية ـ نوضح أن المنهج العلمى يقتضى من الذين يحكمون على تاريخنا ومستوى ارتباط أبنائه بالشريعة أن يقوموا بالبحث الدقيق فى نسيج الحضارة الإسلامية أو الفحص العميق لمكوناتها وعناصرها الفاعلة، وخلاياها المتعددة فى مستويات القاعدة، وفى مستوى القمة، وفى مستوى الإبداع الفكرى، وفى مستويات العمل الجسدى والنشاطات اليومية... كما يقتضى المنهج تتبعًا منصفًا للحركات التى يحلو لبعضهم أن يسميها «حركات ثورية»، مع أنها فى تصورنا «حركات إصلاحية» أرادت العودة بالأمة إلى الكتاب والسنة، حتى إن أخطأ بعضها فى أساليب التغيير... هذا إذا استثنينا بعض الحركات الموجهة من عقائد مضادة كحركة الباطنية والقرامطة.

لقد كان كل المختلفين فى حضارتنا؛ يطالبون بالعودة إلى الإسلام الصحيح... إنه القاسم المشترك الذى لا يُختلف حوله... وكلهم يظن أنه الأقرب للصواب فى دعوته ومنهجه... وكلهم مجتهد، ولم يكن أحدهم ليدعو إلى نبذ الإسلام، وإلا لانتهى فوراً؛ لأن الخروج على الإسلام اتجاه مرفوض من الأمة كلها!! ولم يكن الأمر ـ كما فهمت المدرسة العلمانية وعلى رأسها (محمد أركون) ـ مجرد تمسح فى الإسلام، أو تدثر به؛ لتحقيق أغراض

(١) د. محمد أبو ريدة: المكان السابق.



شخصية!! بل كان الإسلام - بيقين - هو الهدف المشترك، وكان مصدر الخلاف بينهم تغليب حق على حق، أو اعتماد بعضهم ورفض الآخرين للتأويل، أو ترجيح فقه على فقه آخر.

وهذا الخلاف - بالطبع - قد يحتدم عند وجود خلل فى السلوك الذى هو من طبيعة البشر، فتتقدم جماعة للتصويب، ويقاومها الآخرون لخروجها على الطريق الشرعى - فى رأيهم - أو لأنهم فى موقف يبصرون فيه بعض الحقائق التى لا يبصرها الآخرون.

ونحن بالطبع لا نقوِّم هنا شتى السلوكيات التى وقعت فى عصور تاريخية كثيرة، كى نثبت صحة هذه الحقيقة [1] بدءاً بخلافة على ومعاوية (رضى الله عنهما)، وحتى ثورة البربر فى المغرب ضد ولاة الجور، الذين كانوا يبقون الجزية على من أسلم، وأيّا كان الأمر؛ فعندما كانت تتكاثف الأخطاء وتكل السواعد عن حمل الراية الإسلامية والحضارية، كانت سواعد أخرى فتية تتقدم، فتنتهى المرحلة السابقة، وتبدأ مرحلة لاحقة... لتكن السواعد القادرة على حمل الراية سواعد عربية أو بربرية أو تركية أو فارسية أو كردية أو حتى مماليك، من هؤلاء الذين كانوا عبيداً فرفعهم الإسلام بحضارته إلى مستوى القيادة والسيادة... ليكن هؤلاء أو أولئك.. المهم أن يكونوا تحت الشعار الثابت شعار الإسلام.

إن حضارة الإسلام حضارة منفتحة قادرة على المواجهة، وتغيير أدوار البطولة بين أبنائها، والكشف عن طاقاتها الكامنة، واستثارة كل الطاقات.

وفى نهاية هذا الشوط، وبالإضافة إلى كل ما ذكرناه... نقول: إن رصد المجتمع الإسلامى من داخله يحتاج إلى تحليل اجتماعى خاص؛ فهذا المجتمع يمزج بين العبادات والمعاملات، وتمتد فيه مساحة العبادة، فتصبح الأرض كلها فى مفهوم المسلم وسلوكه مسجداً.

---

(١) انظر فى الحديث عن الخلاف بين على ومعاوية - رضى الله عنهما - العواصم من القواصم - لأبى بكر بن العربى، بتحقيق محب الدين الخطيب، وانظر فى تحقيق الفتن فى المغرب: ابن عذارى: البيان المغرب، بتحقيق إحسان عباس، وغيرهما من المصادر.

ولا يصلح للمسلم أن يعطى للمسجد يومًا وينفلت من العبادة بقية أيام الأسبوع، وعندما ننظر فى حقيقة العبادات والشعائر التى يطالب المسلم بها، ولا يستحق صفة الإسلام إذا لم يؤدها، نجدها ذات طبيعة اجتماعية، فهى غير محصورة فى المسجد أو الفرد أو الأسرة.

فالصلاة ذات أبعاد اجتماعية، والحضور لها فى المسجد يحقق صلات، ووظائف اجتماعية . . . وصلة الزكاة بأنواعها المختلفة بالحياة الاجتماعية لا تحتاج إلى دليل، ويتفرع عن العبادة وظائف اجتماعية لها قيمتها، وعلى رأسها: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وحقوق الجيران، وزيارة المرضى، وحق الضيافة؛ الذى يذهب فقيه مثل ابن حزم الأندلسى (ت٤٥٦هـ) إلى وجوبه ثلاثة أيام. . . كما يذهب إلى أن (حق إعارة الماعون) فرض، كذلك فى حدود الطاقة. . .

ولو ذهبنا نستقصى شتى العبادات والأوامر، والنوافل المؤكدة، وفروض الكفاية؛ لوجدنا أن المسلم - بحكم كونه مسلمًا - يعيش الحياة كلها محكومًا بشريعة الله، ولا يجد إلا الله يتجه له بنشاطه؛ لأن هذا من مقتضيات توحيد القصد والعناية. «ومن ثم تعد كل خدمة اجتماعية وكل عمل من أعمال الخير عبادة»[1]، قال ﷺ: «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»[2]. . .

وإذا رصدنا بعض الأخطاء فهذا - كما ذكرنا سلفًا - ضرورة بشرية؛ لأن المجتمع الإسلامى ليس مجتمع معصومين أو ملائكة. . . بيد أن ضمير المسلم ووعيه يرفضان الأخطاء، ولم يسع المجتمع الإسلامى إلى تقنين خطأ قط، أو تحويله إلى قاعدة، كما تفعل المجتمعات المادية والعلمانية؛ فعندما عجزت أمريكا منذ نحو قرن عن تحريم الخمور، وأنفقت مليارى دولار، عادت فأباحتها بقانون طرب له الشعب الأمريكى؛ أما المجتمع الإسلامى فهو يقاوم الذين يبيحون

---

(١) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص: ١٥، طبع دار الشروق، ط ٧ (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

(٢) رواه الشيخان، والترمذى، والنسائى.

المحرمات، ويرفضون فتاواهم، ويصوغ حياته - أفرادًا أو عائلات - أو تقاليد وعادات، أو تربية أو أخلاقًا . . . وفق شريعة الإسلام.

وإذا نظرنا إلى خضوع المجتمع الإسلامى للشرعية من زاوية انبثاق أفكار المسلم وسلوكه عن عقيدته، مثلما تنبثق الأخلاق المادية عن الاشتراكية، والأخلاقية الفردية والبورجوازية عن الرأسمالية، والسلوكيات المتخبطة عن العقائد الوثنية؛ فسوف نجد الصلة قوية بين عقيدة التوحيد، وقيم المسلم المسيطرة عليه، «فهناك قيم وأخلاق تنبثق من تصور أن هناك ألوهية واحدة، وعبودية شاملة لكل شىء وكل حى . . . وهناك أخلاق تنبثق من التصور الإسلامى للوجود وعلاقته بخالقه، ولمركز الإنسان فى هذا الوجود، ولغاية وجوده ووظيفته، ونوع ارتباطاته وعلاقته بالكون المادى، وبالأحياء وببنى جنسه كذلك، وعلاقة هؤلاء جميعًا بالله» (١)، وبإيجاز : فإن الأوضاع الاجتماعية بجملتها، والأوضاع السياسية تطبيق واقعى للقيم المنبثقة من هذا التصور (٢).

وبالإضافة إلى الترابط العضوى بين العقيدة والشريعة من جانب، وحياة المسلم من جانب آخر، فثمة طبيعة أخرى للإسلام تجعل الترابط بين حياة المسلم ودينه ترابطًا قويًّا؛ لا ينحصر فى دائرة العبادات - مع اتساعها - ولا المعاملات - مع اتساعها - بل إن العلاقات التشريعية الإسلامية تغطى كل النشاطات البشرية فى المجتمع، وليس هناك منطقة يشعر فيها المسلم بأنه خارج دائرة الثواب والعقاب؛ ولئن كانت المصادر الشرعية صادرة عن الوحى فإن التطبيق الحى لأصولها فى واقع الحياة، جعلها تثمر ثروة فقهية تراكمت أحكامها من خلال الصلة المباشرة بين الجمهور والفقهاء، فالناس يقصدون الفقهاء بمشكلاتهم، ويقصدون القضاة بمنازعتهم، وهم يجدون من الفقهاء والقضاة والمحتسبين والعلماء؛ الرأى والتوجيه والكل يأخذ من شريعة الإسلام (٣)!!

---

(١) العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ص: ٢٧٢ .
(٢) المرجع السابق.
(٣) طارق البشرى : ندوة التراث وتحديات العصر، القاهرة (١٩٨٤م) (مركز دراسات الوحدة العربية).



وفى ضوء هذه الحقائق يتجلى لنا - بيقين - أن القول الذى يلوكه العلمانيون حول عدم تطبيق الشريعة فى التاريخ الإسلامى وفى الحياة الإسلامية بعد الراشدين يمثل غاية فى الاستخفاف بالعقل البشرى، وهو يؤدى - كما يقول الكاتب والمفكر «غير المنحاز لتراثنا» (محمد عابد الجابرى) إلى عدمية مخيفة - إلى «العدم التاريخى»[(1)]، فأين سنضع الآلاف بل عشرات الآلاف من الفقهاء الذين عرفهم تاريخ الإسلام؟ وأين سنضع كتب الفقه والاجتهادات والفتاوى؟ ونحن إذ نُطلق هذه الأحكام التعسفية نتساءل مع الجابرى : ما حقيقة إسلام أجدادنا وأسلافنا؟ ألم يكونوا مسلمين؟ ألم يطبقوا الشريعة فى عباداتهم وعقود زواجهم ومعاملاتهم؟ إننا نقول : الإسلام دين ودولة . . . نعم، وقد كان كذلك بالفعل، أما إذا قلنا إن الشريعة لم تطبق منذ الرسول عليه الصلاة والسلام أو منذ الراشدين، فمعنى ذلك أن الإسلام لم يكن دينًا مطبقًا، ولا كان دولة طوال الأربعة عشر قرنًا المنصرمة . . فهذا غير صحيح تاريخيًا، وغير مقبول منطقيًا . . . إنه قول يجر إلى عدمية مخيفة، تتركنا بدون هوية ودون تاريخ، وبالتالى بدون حاضر وبدون مستقبل!!

* * *

---

(1) انظر بتصرف كتابات محمد عابد الجابرى : فى «المسألة الثقافية»، ص : ٦٧، وغيرها، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، وانظر الجابرى «الدين والدولة وتطبيق الشريعة»، ص : ٦٢، ومواطن كثيرة، بيروت ١٩٩٦م.







المجتمع الإسلامى فى خلافتى الأمويين والعباسيين (تقييم موضوعى)

من صور الخطأ التى وقع فيها كثير من المؤرخين والمفكرين أنهم خلطوا بين مسيرة الحضارة ومسيرة التاريخ، مطبقين الخطوط السياسية الفاصلة نفسها على التيار الحضارى، مع أن مسيرة الحضارة لا تخضع لتقلب الدول، فضلاً على سقوط دولة وقيام أخرى تنتمى إلى المدرسة العقدية والإشعاع الثقافى نفسه. . .

وأنا أعجب حقيقةً من هؤلاء المؤرخين الذين نظروا إلى سنة (٤١هـ) ـ التى قامت فيها الدولة الأموية ـ وكأنها منعطف جديد فى الحضارة الإسلامية!!

ترى: هل انتهى فى هذه السنة جيل الصحابة؛ الذين رباهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو انقرض التابعون؛ الذين تتلمذوا على يد التلامذة الأوَل للنبى محمد ﷺ؟

إن بعض الصحابة قد عاشوا إلى ما بعد العقد التاسع، أى بعد عام الجماعة بأكثر من نصف قرن كامل. . . أما التابعون فقد عاش بعضهم إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية سنة (١٣٢هـ).

إن ما حدث هو أن أسلوب انتقال الحكم قد تغير من شورى مطلقة إلى شورى مقيدة؛ نتيجة لظروف معينة لا نتعرض لها فى هذا المقام. . . أما نهر الحضارة الإسلامية فقد ظل يشق مجراه. . . وظلت الأمة هى الأمة، والمبادئ هى المبادئ. . .



ونتيجة لتطورات معينة، وابتعاداً عن عصر النموذج القدوة، والانفتاح على حضارات متعددة، والحصول على ثروات طائلة؛ ظهرت تجاوزات هنا وهناك، كما تظهر فى كل المنعطفات والدول العظمى. . . وهى تجاوزات قامت الأمة بنقدها والتنديد بأصحابها. . .

إن (هاملتون جب) - وهو مستشرق لا يمكن وصفه بالدفاع عن تاريخ الإسلام - يومئ إلى طبيعة التغير فى نظام الحكم عند الأمويين، فيذكر أنه: «من قبيل التناقض أن يلصق الناس بالأمويين تلك التهمة الشائعة؛ وهى أنهم حَوَّلوا الخلافة إلى ملك، وهذا التناقض ذاته يوحى لنا بأنه ينبغى علينا - إذا شئنا أن نفهم الطبيعة الحقيقية للأزمة - أن ننفذ إلى ما وراء سطح الواقع بكثير، وأن نجتهد بصورة خاصة فى تحرير أنفسنا من عادة مؤرخى العرب؛ الذين ينظرون إلى العملية التاريخية على ضوء الأعمال الشخصية دون اعتبار منهم للظروف التى اكتنفت أعمال الأفراد، ورسمت حدودها، والقضية التى أحب أن أطرحها فى هذا المقام تتلخص فى أن الأمويين كانوا - إذا جاز لنا التعبير على هذا النحو - ضحية عملية ديالكتيكية داخل المجتمع الإسلامى»[1].

وإذا ما نظرنا إلى الخلافة الأموية [2] بهذه النظرة - غير السياسية - التى ترصد التطور الحضارى، وليس التعبير الفوقى؛ فإننا سنجد هذه الخلافة التى قُدر لها أن

---

(١) جب: دراسات فى حضارة الإسلام، ص: ٤٨، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٩م.

(٢) كنموذج للتحليل الموضوعى المنصف - غير الإسقاطى - نقدم هذا النص من كلام المفكر الإسلامى والمصلح الإمام بديع الزمان سعيد النورسىّ فى معالجة الصراع بين الإمام على ومعاوية - رضى الله عنهما - فى صفين، يقول الإمام النورسىّ: أمّا ما وقع من حرب بين الإمام على رضي الله عنه وسيدنا معاوية رضي الله عنه وأنصاره فى واقعة «صفين»؛ فهى حرب بين الخلافة والسلطنة (الملك الدنيوى)؛ أى أن الإمام عليًا رضي الله عنه (قد اتخذ أحكام الدين وحقائق الإسلام والآخرة أساسًا، فكان يضحى بقسم من قوانين الحكم والسلطنة، وما تقتضيه السياسة من أمور فيها إجحاف فى سبيل الحقائق والأحكام؛ أما سيدنا معاوية ومن معه، فقد التزموا (الرخصة الشرعية)، وتركوا الأخذ بالعزيمة؛ لأجل إسناد الحياة الاجتماعية الإسلامية بسياسات الحكم والدولة، فعدوا أنفسهم مضطرين فى الأخذ بهذا المسلك فى عالم السياسة، لذا رجحوا الرخصة على العزيمة فوقعوا فى الخطأ (انظر النورسىّ: المكتوبات، ص: ٦٨، نشر سوزلر - القاهرة).

(أى أننا نفهم من كلام النورسى أن الخلاف يمثل وجهتى نظر، وأن للمصيب أجرين وهو الإمام على وأتباعه، وللمخطئ أجراً وهو معاوية وأتباعه (ورضى الله عن الجميع).



تعيش فى التاريخ نحو قرن من الزمان، تواجه خلاله بقايا الإمبراطوريات المندثرة رومية وفارسية، وتؤصل لمؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية فى العالم الإسلامى الجديد، والحديث، عهداً بالبداوة والفكر الوثنى والرومانى السابق، وذلك مع وجود بعض التجاوزات، خضوعًا لظروف التطور التى ألمحنا إلى بعض جوانبها سابقًا، مما يؤكد وجهة نظرنا فى أن التغيير السياسى لا يرتبط بالتغير الحضارى.

إننا هنا نتساءل: هذه الجيوش الفاتحة التى ساحت فى معظم أقطار المعمورة، من حدود الصين والهند وحتى سبتة فى المغرب الأقصى وكوفادونجا فى جبال البرانس بإسبانيا... ألم تقم على أكتاف الجندى المسلم المجاهد الذى كان يمضى مخلصًا شبه متطوع أو نظاميًا وراء القادة الذين اختارهم بنو أمية؟... لقد أثبت هؤلاء أنهم مخلصون حقًا بصرف النظر عن النظام السياسى الذى انتقلوا إليه... ولقد نشروا الإسلام فى المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وطرابلس وبرقة وإسبانيا والصين والهند وبلاد آسيا الوسطى وأفغانستان وغيرها...

وفى هذا العصر وقعت عملية التعريب، وتم تنظيم الدواوين، وسك العملة، وبدأت العلوم العربية والإسلامية تكتمل صورها!!

وإذا كنا قد استشهدنا برأى (جب) فى طبيعة الانتقال من الراشدين إلى الدولة الأموية؛ فإننا ـ ونحن نلقى ضوءاً وجيزاً على أبرز خلفاء هذه الدولة، الذين قاموا بالفتوحات وساعدوا التطور ـ نتابع استشهادنا بمؤرخ أوروبى آخر من كبار الدارسين للتاريخ الإنسانى كله، إيمانًا منا بأن شهادة هؤلاء قد تكون أكثر قابلية لدى المدرسة العلمانية؛ التى تسقط أحكامًا تعسفية غير متأنية على تاريخنا!!

إن (ول ديورانت) يقول:

«يجب علينا ألا نظلم معاوية، لقد استحوذ على السلطة فى بادئ الأمر؛ حيث عينه عمر ـ الخليفة الفاضل النزيه ـ واليًا على الشام، ثم بتزعمه الثورة؛ التى أوقد نارها مقتل عثمان، ثم بما دبره من «الأساليب السياسية» البارعة؛ التى أغنته عن





الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة . . . ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضبًا بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرًا حاكمة جديدة» [(١)].

«وكان يجلس للناس خمس مرات فى اليوم، وقد استؤنفت الفتوحات الإسلامية فى عهده بعد توقف، وكان يسمع المدح فى منافسه فى مجلسه؛ بل ويسمع بفضله عليه ولا يعاقب على ذلك . . .

أما عبد الملك بن مروان؛ فقد سار على خطى معاوية، وحاول أن يطبق سياسته الداخلية فى الجلوس للناس، وكان من فقهاء المدينة المعروفين، وقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك، وكان من فاتحى إفريقية قبل الخلافة، وقد استقرت قواعد الدولة فى عهده، وظهر طابعها العربى واستقلالها الحضارى .

أما ابنه الوليد الأول ففى عهده (واصل العرب فتوحاتهم فاستولوا على بلخ فى عام (٨٦هـ - ٧٠٥م)، وكان الوليد مثلاً طيبًا للحكام، يُعنى بشؤون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب، ويشجع الصناعة والتجارة؛ بفتح الأسواق الجديدة، وإصلاح الطرق، وينشئ المدارس والمستشفيات - ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية - وملاجئ للشيوخ، والعجزة، والمكفوفين، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس، ويجملها، وينشئ فى دمشق مسجدًا أعظم من هذه المساجد وأفخم، ولا يزال باقيًا فيها حتى اليوم» [(٢)]

ولما جاء عمر بن عبد العزيز (٩٩ / ١٠١هـ-٧١٧ / ٧١٩م) أعاد سيرة الراشدين، واعتبر بإجماع الأمة خامس الراشدين، وأحدث عودة حميدة شعبية ورسمية للإسلام .

وقد حكم هشام الدولة حكمًا عادلاً ساد فيه السلم، وأصلح خلاله الشؤون الإدارية، وخفض الضرائب، وترك - بعد وفاته - بيت المال مليئًا بالأموال[(٣)].

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ١٣/ ٨١، طبع مصر، الطبعة الأولى .
(٢) المرجع السابق١٣/ ٨٣ .
(٣) المرجع السابق ١٣/ ٨٣ .



فهؤلاء - كما نرى - (معاوية، وعبد الملك، والوليد، وعمر، وهشام) خمسة من خلفاء بنى أمية، حكموا نحو ثلاثة أرباع عمر الدولة، وقدموا خدمات كثيرة للحضارة الإسلامية، باعتراف مؤرخ أوروپى كبير، يحاول أن يقترب من الإنصاف، وقد كتب ديورانت ما كتبه ضمن رصد شامل للحضارة الإنسانية، وليس فى دراسة مستقلة متخصصة، ومع ذلك جاء فى كلام (ول ديورانت) - كما رأينا - قدر كبير من الإنصاف ضمن منظومة (قصة الحضارة)، وذلك على العكس من كتابات العلمانيين الذين لم يحسنوا قراءة تاريخ الإسلام؛ بل أغلب الظن عندى أنهم أو بعضهم لم يقرءوه أصلاً!!

وقد اهتم الأمويون بتجديد المساجد الأولى التى أنشئت فى عصر الراشدين؛ مثل جامع البصرة والكوفة والفسطاط، وجامع صنعاء الكبير، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة؛ مثل جامع دمشق، والجامع الأقصى، وقبة الصخرة، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع عقبة بن نافع فى القيروان، كما جددوا المسجد النبوى فى عهد الوليد بن عبد الملك، وزادوا فى جامع عمرو بن العاص عدة مرات [١]، وقد ازدهرت الحياة الفكرية فى العصر الأموى، وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية والاجتماعية والرياضيات والفلك والطبيعيات[٢]، وكان من أهم العلوم الدينية: (القراءات، والحديث - الذى دون فى عصرهم - وعلوم القرآن)[٣].

ولما كان العهد الأموى عهد فتوحات وتفاعل مع الحضارة المعاصرة؛ فقد وقف الحكام وعلماء الأمة وقفة حضارية أصيلة فى وجه الأفكار والعلوم والنظم واللغات الوافدة، وقد نجحوا فى وضع الضوابط والمناهج، وأسس هذه العلوم؛ التى تكفل التأصيل الصحيح، والمواجهة الإيجابية، والاستجابة المثلى للتحدى الفكرى.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص: ٤٣٦، وما بعدها - بتصرف - طبع الإسكندرية، (١٩٨٢م).

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٢١.

(٣) المرجع السابق، ص: ٤٢٣.



وكما نشأت علوم اللغة لمواجهة اللحن، فقد نشأت المذاهب الفقهية للاجتهاد فى الوقائع الجزئية التى تكاثرت، فظهر الإمام أبو حنيفة (٨٠ـ ١٥٠هـ)، والإمام مالك ولد سنة (٩٣هـ)، وقيل (٩٥هـ)، وتوفى سنة (١٧٩هـ) ـ رضى الله عنهما ـ وكذلك نشأ علم الحديث بفروعه الكثيرة والرائعة لمواجهة الوضع والوضَّاعين.

وكان القضاء قائمًا على خير الوجوه الشرعية وأحكمها، فقد جرى معاوية بن صخر بجهده فى ملاحظة القضاء ورسومه على حدث وترتيب زمانه، جاريًا فى ذلك على سنن من تقدمه [١]؛ أى على سنن الراشدين.

وحقيقة أن الدولة العباسية لم تكن دولة فتوحات؛ لأسباب كثيرة: منها أنّ الأمويين قد تركوا لها ما يكفيها من الأرض؛ بل إنها كانت فى حاجة إلى جهد كبير لتحكم قبضتها على الأرض التى تحت أيديها، وكانت الدولة العباسية ـ بالتالى ـ تتجه إلى الداخل، وترعى ـ فى حدود المتاح للحكم ـ العلوم والآداب، وكان الشعب مشغولاً بصناعة الحضارة مطمئنّا، تهيأت له الفرص، ونشر العباسيون الرخاء أمام الناس لستة قرون لم يُر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم كما يقول (ول ديورانت)، وقد ازدهرت العلوم والآداب، والفنون ازدهاراً جعل آسيا الغربية لخمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة [٢].

ونال التعليم من العناية القدَح المُعَلّى والحظ الأوفر، ظهرت مراحله الأولية والثانوية والعالية، وحدث أن وضعت الحكومة هذه «المدارس الثانوية» تحت إشرافها، وتكفلت بالإنفاق عليها، وكان التعليم بالمجان، وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم فى بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات، وكان الطلاب يجوبون أطراف البلاد الإسلامية؛ ليقابلوا عالمًا كبيراً أو مصلحًا مشهوراً، وكان على كل طالب علم يريد أن تعلو مكانته فى بلده أن يسافر إلى مكة، أو بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، ليستمع فى واحدة منها أو

---

(١) أبو الحسن بن عبد الله النباهى الأندلسى: تاريخ قضاة الأندلس، ص: ٢٤، طبع دار الآفاق، بيروت ـ الطبعة الخامسة (١٤٠٣هـ).

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة ١٣/ ١٥٠.

أكثر من واحدة إلى كبار العلماء، وكان من الأسباب التى يسرت انتشار الأدب العربى فى بلاد الإسلام المختلفة وجعلته أدبًا دوليًا واحدًا، أن لغة التعليم والأدب فى جميع البلاد الإسلامية ـ مهما اختلفت أجناس أهلها ـ هى اللغة العربية؛ التى بلغت من سعة الانتشار ما لم تبلغه اللغة اليونانية [١] .

وقد ساعد على انتشار الأفكار العربية والإسلامية أيضًا؛ أن العرب كانوا قد عرفوا الورق، وافتتحوا فى بغداد أول مصنع للورق عام (٧٩٤م) على يد الفضل ابن يحيى (وزير هارون الرشيد)، ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وإسبانيا، وفى الفترة نفسها وجد الورق فى مصر، وبدأ ينتقل إلى معظم العالم الإسلامى، وبالطبع فقد يسر هذا الاختراع تأليف الكتب فى كل بلد انتقل إليه.

وكانت معظم دروس الفقه والعقيدة فى العصر العباسى تعطى فى المسجد، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس، وكان يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة فى المسجد، مستندًا إليها بظهره إن أمكن، وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة ـ كما يؤكد آدم متز ـ وقت العشاء مائة وعشرة من مجالس العلم [٢] .

لقد حقق المنصور للدولة العباسية استقرارًا كبيرًا فى النواحى المالية والإدارية والقضائية، وبقية تنظيمات الجهاز الإدارى للدولة، واتبع المنصور أسلوب المركزية فى الحكم، وقد ساعده على ذلك وجود نظام دقيق للمراقبة؛ مكنه من معرفة ما يجرى فى الولايات عن طريق البريد، فقد كلف عمال البريد بمراقبة الولاة، والكتابة إليه عن عُمَّاله وعن الأسعار والأموال والقضاة، واهتم المنصور باختيار ولاته وعماله فى جميع أجهزة الدولة، من ذوى الأخلاق الفاضلة والديانة والأمانة، وخصص المنصور جزءًا كبيرًا من وقته اليومى للنظر فى الكتب الواردة عليه من أنحاء الدولة.

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ١٣/ ١٥٠ .

(٢) انظر المقدسى : أحسن التقاسيم، ص: ٧٣ وما بعدها، وفى القديمة ص: ٢٠٥ ، طبع مكتبة مدبولى ـ مصر ، ففيه تفصيل لهذه الحركة العلمية النشطة .

كما اهتم بالشؤون الحربية وتنظيم الجيش، وأسند قيادة الجيش لشخصيات عربية، كما أن معظم الجند كانوا من العرب، أما الوزارة فلم يكن لها نفوذ كبير فى عهده، غير أنه جعلها نظامًا سياسيًا لها مراسيمها الخاصة، وقد تميز القضاء فى عهده بالتنظيم، وظهر المذهبان الفقهيان المالكى فى الحجاز والحنفى فى العراق[1].

أما الشرطة وهى تابعة للقضاء آنذاك، فقد حرص المنصور على متابعة أخبار أصحاب شرطته، وإنزال العقوبة بمن تجاوز حدود سلطته.

وكان المنصور أول من اهتم بالعلوم من خلفاء بنى العباس، وأول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربية من كتب الفلك والرياضيات والطب والأدب، كما بدأ ازدهار التدوين فى عهده فى الفقه والحديث والتفسير والتاريخ وغيره، ومن أشهرها كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، وكتاب السيرة النبوية لابن إسحاق.

وكان جامع المنصور ببغداد - وهو أحدث مسجد جامع بها - أشهر مركز للتعليم فى الدولة الإسلامية، ويحكى أن الخطيب البغدادى لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله - عز وجل - ثلاث حاجات أخذًا بقول النبى ﷺ: (ماء زمزم لما شُربَ له)، **فالحاجة الأولى:** أن يحدث بتاريخ بغداد، **والثانية:** أن يملى الحديث بجَامع المنصور، **والثالثة:** أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى[2].

وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣هـ - ٩٣٥م) - وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى - إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها...

---

(١) موضى الرميح: الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور وسياسته الداخلية والخارجية، رسالة ماجستير بكلية الآداب للبنات بالدمام (١٤٠٩هـ)، (الخاتمة)، وانظر الذهبى: سيرة أعلام النبلاء ١٣/ ٣٠٢، وما بعدها، مطبعة الرسالة - بيروت.

(٢) انظر: أبى أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٢٥، طبع بيروت، وانظر آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة دكتور عبد الهادى أبو ريدة ١/ ٢٩٦.



وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ، فقد كان أبو حامد بن حمد الإسفراييني المتوفى عام (٤٠٦هـ - ١٠١٥م) إمام أصحاب الشافعي، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه.

وأما أبو الطيب الصعلوكي الفقيه الأديب مفتي نيسابور، وهي مركز علماء خراسان، فيقال: إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم في عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم (٣٨٧هـ - ٩٩٧م)، وكان يقعد بين يدي أحد أصحاب الجويني (ركن الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف) المتوفى عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) كل يوم ثلاثمائة من الأئمة والطلبة[١].

وكانت المكتبات العامة، ومكتبات المساجد منتشرة يؤمها الدارسون، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم، وبلغت فهارس كتب المكتبة العامة بالري عشرة مجلدات، ولما دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة[٢].

ولقد استخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية، ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس، واستخدموا كروية الأرض أساسًا بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية؛ بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد، وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل، وهو تقدير يزيد بنصف ميل عن تقديرنا في الوقت الحاضر[٣].

ومع أن عصر المأمون يتعرض لنقد شديد؛ نظرًا لاستبداد المعتزلة فيه، وللوقوع في الترجمة الوافدة؛ التي أساءت إلى عناصر الأصالة مهما بذل في انتقائها وغربلتها، وعدم وجود ترجمة مضادة من العربية إلى اللغات الأخرى، إلا أن هذا العصر قد حفل بكثير من صور التقدم في شتى العلوم العقلية والنقلية...

---

(١) آدم متز: المرجع السابق ١/ ٢٩٧.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٠.
(٣) المكان السابق.





الأمة فى خدمة الشريعة (نموذج)

ومع هذا ، ومع وجود الإيجابيات التى قام بها جهاز الدولة فإن الأمة المسلمة - كعادتها - لم تترك أمر الشريعة للحكومة وحدها ؛ بل جاهدت فى مجال نشر الإسلام الصحيح ، ومقاومة البدع الفكرية الوافدة ، واللصوص والمفسدين ؛ الذين انتهزوا فرصة الصراع على الحكم فى الدولة ، وعاثوا فى البلاد الفساد !! ويحدثنا التاريخ فى هذه الفترة عن حركة من هذه الحركات الإصلاحية الشعبية الرائعة .

فقد اشتهر أحمد بن نصر الخزاعى بأنه كان عالمًا ومعلمًا فى بغداد ، خصوصًا أيام المأمون حينما برزت الفتنة ، وبدأ المعتزلة ينشرون آراءهم القائلة بخلق القرآن ، فكان الخزاعى من أشهر من وقف فى هذه الأزمة ، وكان لأسرته مكانة خاصة لدى العباسيين ؛ نظرًا لمكانة جده ؛ حيث كان أحد النقباء للدعوة العباسية ، وبالتالى فقد كان أحمد بن نصر من أهل الوجاهة والرياسة فى بغداد ، كما صرح بذلك ابن كثير[١] ، وقد كان ابتداء شهرته فى بغداد سنة (٢٠١هـ) ، بعد قتل الأمين ببغداد سنة (١٩٨هـ/ ٨١٣م) ، وبقيت بغداد مسرحًا للنهب وللسلب ؛ حيث تأخر المأمون بخراسان ، واضطربت أحوال بغداد ، وكثر فيها اللصوص والدعارة ، وأهل الفساد ، فاجتمع حوله جماعة من الناس بايعوه ، وأخذوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وكان أتباعه يستمعون لأوامره ، وبالتالى ساعد على ضبط الأمور فى شرق بغداد ، إلى أن قدم المأمون إلى بغداد سنة (٢٠٤هـ) [٢] ، فاختفى الخزاعى عندئذ ، وذكر المؤرخون أن الخزاعى ، وسهل بن سلامة كانا يتعاونان على هذا الأمر [٣] ، وقد استمرت دعوة الخزاعى ما بين (٢٠١ - ٢٣١هـ) أى ثلاثة عقود .

---

(١) البداية والنهاية : حوادث سنة (٢٠٢هـ) .
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، (حوادث سنة ٢٠٤هـ) .
(٣) الطبرى : المكان السابق ، ابن كثير : البداية والنهاية ، (حوادث سنة ٢٠٢هـ) .





ويصور الطبرى حركة الخزاعى الدعوية الإصلاحية ؛ عندما يؤرخ لسنة (٢٠١هـ) فيقول : فى هذه السنة تجردت المتطوعة للنكير على الفساق ببغداد . . . وكان السبب فى ذلك فساق الحربية والشطار ؛ الذين كانوا ببغداد والكرخ ، فآذوا الناس أذى شديداً ، وأظهروا الفسق ، وقطع الطريق ، وأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرق . . . فلما رأى الناس ذلك وما قد أظهروا من الفساد فى الأرض ، والظلم والبغى ، وقطع الطريق ، وأن السلطان لا يغير عليهم ، قام صلحاء كل ربض وكل درب ، فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا إنما فى الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة ، وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم ، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق ، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم .

وقد قام رجال من أهل بغداد بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعمل بكتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه ﷺ ، وتبايعوا على ذلك ، وأخذوا يشجعون الناس على التعاون ، والتكاتف لصد أولئك المفسدين ، ومنعهم من الاختباء ، وقد كانت هذه الحركة الشعبية عامة وشاملة ، دخل فيها الكثير من الناس ، وكانت منظمة ؛ بحيث يسجل فيها اسم من يريد التعاون معها ضد الفساق ؛ الذين كانوا يعيثون فساداً فى بغداد ، وقد تمكنت هذه الحركة - بانتظام ودقة - من العمل على منع اللصوص من العبث ببغداد وبأهلها ، وأوقفوا ما كان يدفعه الناس من أموال لهؤلاء المفسدين مقابل عدم الاعتداء عليهم .

ويدل على تنظيم هذا العمل ودقته ، ما ذكره الطبرى من أن رؤساء هذه الحركة قد جعلوا لها دواوين يسجل فيها اسم من بايع على العمل معهم[١] .

فلما انتهت الفتنة بين المأمون والأمين ، وعادت للحكومة هيبتها ، وعاد لها سلطانها توقفت الحركة ، وتركت الأمور لذويها من أهل الحكم .

---

(١) الطبرى : حوادث سنة (٢٠١هـ) ، وما بعدها .



نماذج لخلفاء صالحين

ولئن كنا قد ألمحنا إلى بعض الخلفاء العظماء والمشهورين من آل العباس، من أمثال محمد المهدى، وهارون الرشيد؛ فما ذاك إلا أننا لا نريد تأكيد المعروف والمتفق عليه من المنصفين . . . كما أننا أيضًا عمدنا إلى تجاوز العصور المزدهرة غالبًا؛ حتى لا يُحتج علينا بأننا ركزنا على المشهورين الذين يمثلون ـ فى رأى المتحيزين ضد تاريخنا ـ الشذوذ.

ولهذا الالتزام فإننا لم نقف عند عمر بن عبد العزيز ونحن نتحدث عن بنى أمية، وأيضًا فإننا لن نقف عند محمد المعتصم العباسى (٢١٨ـ٢٢٧هـ/ ٧٣٣ ـ ٨٤٢م) صاحب عمورية العظيم، ولن نقف عند هارون الواثق، أو جعفر المتوكل؛ الذى قاوم حركة ظلم الاعتزال، وأنهى الظلم الذى وقع على أهل السنة.

وسوف نقفز لنقدم نموذجين من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) استغرق حكمهما نحو ستين سنة.

وهذا القرن الخامس ـ كما هو معروف ـ من القرون التى تحسب من عهود ضعف الدولة العباسية.

فى هذه الفترة كان الخليفة فى بغداد (المقتدى بأمر الله العباسى)؛ الذى حكم عقدين من الزمان (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ)، واحداً من خليفتين حكما فى النصف الثانى من القرن الخامس.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن المقتدى كان يتمتع بأخلاق طيبة، وأن من صفاته حبه للدين والخير، وكانت نفسه قوية، وهمته عالية، وذا شجاعة وشهامة، وكل أيامه خير وبركة، حسن السيرة والسريرة[1]، ويصفه ابن كثير ـ أيضًا ـ بأن شمائله عالية، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويمتاز بالعدل والصلاح والتقوى، ولين الجانب، وكثرة العلم[2].

---

(١) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص: ١٢٦، طبعة بيروت.
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/ ١٤٦، دار صادر بيروت.



وكان المقتدى حريصًا على أخلاق الناس ودينهم؛ ولذلك عمل منذ خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور، وخرَّبَ الخمارات، ودور الزوانى والمغانى [(١)]، وقد تابع التطهير كلما ظهر ما يوجبه [(٢)]، وكان يهتم بمتابعة حركة النظام فى بغداد، وأقدم على اتخاذ قرار بتأمين الحاجات الضرورية للناس، وعلى رأسها المسكن، فأمر بشراء بيت لكل فقير يسكن فى كوخ، وقد راقب المقتدى حركة البيع والشراء، ومنع التلاعب بالموازين والأسعار [(٣)].

وكانت المدارس الفقهية هى الظاهرة اللافتة للنظر؛ لأنها تعكس تطور الحركة الفقهية، وعلم الحديث، والتفسير، والآداب، واللغة؛ لأنها جميعًا كانت مواد التدريس التى يتلقاها طلاب هذه المدارس، وكان انتشار المدارس بمدينة بغداد فى عصر السلاجقة هى الحدث الأكبر والأهم الذى حققته الحضارة الإسلامية، وتعتبر بحق قفزة كبيرة فى سلم التطور العلمى، بعد أن كان التدريس محصوراً فى المساجد وبعض الكتاتيب.

وقد أنشئت المدارس لخدمة المذاهب الفقهية، ولتغذية أجهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة [(٤)].

وقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة فى المجتمع الإسلامى بمدينة بغداد؛ فى أيام المقتدى بالله العباسى، وساهموا فى معظم الأحداث التى شهدتها المدينة، وازدهرت فى هذه المرحلة مذاهب الفقه السنية الثلاثة: مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومذهب الإمام الشافعى، ومذهب الإمام أبى حنيفة [(٥)].

أما الخليفة المستظهر أبو العباس أحمد المقتدى فقد حكم بين سنتى (٤٨٧ - ٥١٢هـ)، ويصفه المؤرخون بأنه لين الجانب، كريم الأخلاق، يحبّ اصطناع

---

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية فى بغداد، ص: ١٦، دار النفائس - بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١١١.

(٣) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية فى بغداد، ص: ١٨.

(٤) المرجع السابق، ص: ٥٦.

(٥) المرجع السابق، ص: ٦٠، ٦١.





الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات[1]، وكان مؤثرًا للإحسان، حافظًا للقرآن، محبّا للعلم، منكرًا للظلم، وكان مشكور المساعى لا يرد مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلوث وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض[2].

وكان جميل السيرة متصفًا بالعدل والإنصاف، ناهيًا عن قصد الجور والاعتساف، سمحًا جوادًا، هينًا لينًا، حسن المعشر، قد حسن الله خُلُقَهُ وخَلْقه، وبره وأدبه، وجهه أبيض مشرب حمرة، تام الطول، لطيف المحاسن، نقش خاتمه «ثقتى بالله وحده»، يحب العلماء والصلحاء، كبير الهمة، سهل العريكة، وكانت أيامه أيام سرور للرعية؛ فكأنها من حسنها أعياد، وكان حسن الخطّ، جيّد التوقيعات[3].

وقد تميزت العلاقة بين المذاهب الإسلامية فى عهد المستظهر بالصلح، والمودة، والاحترام، وهذا كان بفضل السياسة الحكيمة التى اتبعها الخليفة فى معاملة عامة الناس.

ويعدّ عهد المستظهر من أزهى العهود التى عرفها أهل الذمة ببغداد؛ لأن المستظهر حرص على معاملتهم بالحسنى، وقرّب زعماءهم.

نموذج لدور المرأة الحضارى

لم تكن المرأة المسلمة فى العصر العباسى بعيدة عن مجال صناعة الحضارة الإسلامية؛ بل كانت ركنًا أساسيّا من ركنى الحضارة الفاعلة، وكان لها وجود

---

(1) عز الدين أبو الحسن بن الأثير: الكامل، ص: ٥٣٥، طبعة دار صادر-بيروت، وانظر: محمد حسين شندب: المرجع السابق، ص: ٨٥، ٨٦.

(2) ابن الأثير: المكان السابق، ص: ٥٣٥، والمرجع السابق، ص: ١٨٧.

(3) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٥٣٦، وانظر: ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٢٩٤، حيدر آباد-الهند، سنة ١٣٥٨هـ.





فاعل فى داخل البيت؛ حيث تشرف على صناعة الإنسان وتحويله إلى إيجابى مؤمن مؤثر، كما كان لها وجود ـ أيضًا ـ فى المسجد والتعليم والفكر والثقافة والجهاد، فى الإطار الذى حددته شريعة الله، وثمة كتب كثيرة رصدت (أعلام النساء) ودور المرأة الحضارى، ونكتفى بنموذج نقدمه من حياة ابن عساكر (٤٩٩ـ ٥٧١هـ) نفسه، ومن إطلالة عابرة على الجزء الذى خصه لتراجم النساء من كتابه (تاريخ مدينة دمشق).

كان بيت الحافظ أبى القاسم على، المعروف بابن عساكر معمورًا بالعلم؛ كل من فيه بين حافظ ومحدث. لقد استطاعت شخصيته القوية، وروحه السمحة أن تفعل فى نفوس أبنائه وزوجه فعل السحر، كان ابنه القاسم بن على بن الحسن جمال الإسلام حافظًا، سار على خطوات أبيه، وأتم عمله فى التاريخ وَبيّضه وسمعه على أبيه، وكانت زوجه وأم أبنائه عائشة بنت على بن الخضر أم عبد الله السلمية تهتم بالحديث وتسمعه من شيخات يحضرهن لها زوجها، ثم يسمع أبناؤها منها، كما يسمعون من والدهم، أما أبو الفتح الحسن بن على؛ فقد سمع على والده الحافظ أبى القاسم، وعمه الفقيه الصائن [1].

أما خارج البيت؛ فقد كان لابن عساكر شيخات تعلم على أيديهن، وقد ذكر منهن فى كتابه (شكر بنت أبى الفرج) سهل بن بشر، وخجسنة بنت إبراهيم أم الشمس الأصفهانى، وخجسنة بنت أبى المظفر بنت أبى الوفاء عمر (أم البهاء)، وشهدة بنت أحمد بن الفرج، وضوء بنت محمد الطويل (أم الكرام)، وفاطمة بنت محمد بن أحمد أم البهاء بنت البغدادى، وملكة بنت إبراهيم بن داود بن محمد سعيد القرطقى (العالمة الصوفية)، ونورسى بنت أبى الوفا عبيد الله بن محمود أم النجم [2].

ونحن نتوقع ـ بالطبع ـ أن هذه التلمذة على هؤلاء الشيخات كانت فى إطار الشريعة، وكانت إما فى الصغر، وإما فى إطار المسجد، أو التلقى غير المباشر،

---

(١) الحافظ أبو القاسم على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، قسم تراجم النساء، بتحقيق سكينة الشهابى، ص: ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص: ٣١.



ويكفى أن نرصد هذا الحشد الكبير الذى دونه ابن عساكر فى تراجمه للنساء؛ لنعلم كم كان دور المرأة فاعلاً فى العصور التى يصفها بعضهم بالجمود . . . ففى حرف الألف فقط أورد ابن عساكر هذه الأسماء:

أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية «ابنة خالة المصنف»، وأسماء بنت واثلة بن الأسقع الليثية ، وأسماء - ويقال : فكيهة - بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس الأشهلية، أسماء امرأة كانت فى عصر أم الدرداء، آمنة - ويقال : أمة - بنت سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، آمنة بنت الشريد ، زوج عمر بن الحمق، آمنة - ويقال : أمينة - بنت عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص، آمنة - أو أمية - بنت أبى الشعثاء الفزارية ، آمنة بنت محمد بن أحمد ، أم اليمن العجلية، آمنة بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية «ابنة خالة المصنف» ، آمنة ذات الذئب، أمة العزيز بنت سهل الإسفراييني، أمة العزيز بنت محمد بن الحسن الديلمية، أميمة بنت أبى بشر بن زيد بن الأطول - ويقال : زيد الأطول - أميمة بنت رقيقة - وهى أميمة بنت عبد، ويقال عبد الله بن بجاد بن عمير [1] .

ولنا أن نقيس على حرف الألف بقية الحروف، ويكفى أن نعلم أن هذا الجزء الذى خصه لتراجم النساء من كتابه الموسوعى (تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حَلَّ بها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها) يقع فى أكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير، كما يجب أن نتذكر أيضًا أن هذا الكتاب يرصد حركة الحضارة فى مدينة واحدة مدينة دمشق، وأنه لا يرصد إلا الأعلام البارزات؛ اللائى استطاع ابن عساكر أن يصل إليهن . . . ولنا - بل يجب علينا - أن نضع عند تقويمنا، النساء اللائى كن فى بغداد؛ التى كانت تتصدر الحواضر الإسلامية فى العصر العباسى.

ولنا - بل يجب علينا - أن نضع الأندلس بقرونها الثمانية عند التقويم أيضًا . . .

(١) المرجع السابق، ص: ٥٩٣، ويلاحظ أنهن من عصور مختلفة، تبدأ من العصور الأولى للإسلام.



ولنتذكر كذلك الأدوار الحضارية ؛ التى تعاورتها العواصم والحواضر الإسلامية الكبرى على امتداد العالم الإسلامى : المدينة ، والقاهرة ، والقيروان ، وفاس ، وبجاية ، ودهلى وغيرها .

وكانت المرأة العابدة والعالمة ، والمربية والمجاهدة موجودة هنا وهناك . . . تتحرك فى إطار الشريعة ، وقد تخطئ - وفق سنن الله البشرية - كما يخطئ الرجال . . . لكنها كانت وستبقى أشرف امرأة عرفها تاريخ البشرية . . . إنها تموت ولا تبيع دينها أو تأكل بثدييها فى الأعم الأغلب ! !

متى نكف عن ظلم تاريخنا ؟!!

وهكذا . . . من خلال هذه الومضات من تاريخ المجتمع الإسلامى فى خلافتى الأمويين والعباسيين ، وهى الومضات التى تشكل مجرد نماذج (غير منتقاة) ؛ والتى تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء للجوانب الأخرى ؛ التى تتصل بالتفاعل الحضارى ، القائم على شريعة الإسلام فى الخلافتين العظيمتين الأموية والعباسية . . . هكذا نكتشف الحجم الحقيقى للظلم الواقع على تاريخنا ، كما نكتشف حجم التقصير الواقع من بعض المحسوبين عليه ، وعن طريق هؤلاء الذين يطلقون أحكامًا عامة جزئية ، سرعان ما تسقط عند البحث العميق .

وقد اكتشفنا من خلال النماذج المقدمة ؛ كيف كان التفاعل إيجابيّا وقويّا من قبل كثير من الحكام ، ومن قبل الشعب المسلم ؛ الذى كان الحارس الأمين على شريعة الإسلام وحضارته .

وقد كان هناك تفاعل من نوع آخر لم نقف عنده كثيرًا ، مع أنه انبثق عن التصور الإسلامى أيضًا ، وإن كان يتصل ببعض الوسائل والتقنيات ، وعلى سبيل المثال ؛ فقد انتشرت البيمارستانات ، وكانت أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب ؛ لكنها كانت محكومة بالشريعة أيضًا . فلم تكن الشريعة تجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة ؛ إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ، ونال إجازة من الدولة .





كذلك كان الصيادلة، والأطباء، والمجبّرون يخضعون لأنظمة شرعية تضعها الدولة للتفتيش عن أعمالهم، وكان فى بغداد وحدها (فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) ثمانمائة وستون طبيبًا مرخصًا.

وكان انتظام مالية الخلفاء سببًا فى القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير كتعبيد الطرق، وإنشاء الفنادق، والمساجد، والمشافى، والمدارس فى جميع نواحى الدولة، ولا سيما فى بغداد والبصرة والموصل (..)، واتسع نطاق الزراعة، ووسعت دائرة التعليم العام [(١)].

وخلال القرون الأربعة: (الثانى، والثالث، والرابع، والخامس الهجرية) بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية، ولم يكن العلماء فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلُّون عن عدد ما فيها من الأعمدة [(٢)].

وفى ذلك كانت الدوافع شرعية فى الأغلب الأعم؛ لأن الإسلام دين ودنيا، وعبادة وعمل، كما أن ذلك كان محكومًا بالضوابط الشرعية، إلا ما كان فى دائرة الشذوذ... ذلك لأننا لا نستطيع أن نقول... إن بنى العباس لم يخطئوا، ولكننا نقول إن ذلك يجب أن يقاس فى إطار ظروفه التاريخية، وأن يتحرى فيه وجه الحق[(٣)]، وأن يكون موضوع التحليل عادلاً وموضوعيًا.

إن (ديورانت) ـ مع كل ما أورده عن الدولة العباسية إيجابًا وسلبًا ـ لم يملك إلا أن يقول: «إنها كانت أقوى حضارة علمية إلى نهاية العصر العباسى، وبعده بستة قرون [(٤)].

* * *

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٠، وما بعدها، وقد ذكر الذهبى أن أحد علماء الحديث كان يجلس أمامه أكثر من ثمانمائة طالب، سيرة أعلام النبلاء ١٣/ ٣٠٢، وما بعدها.
(٢) المصدر السابق.
(٣) د. محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامى لدراسة التاريخ، ص: ٢٥، ٢٦، ط/ ١٩٨٤م، القاهرة.
(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٠، وما بعدها.



الحياة الإسلامية فى المغرب وإفريقية

مع قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ)؛ انفصلت عن دولة الخلافة الكبرى - من الناحية السياسية - بعض الأقاليم، ولاسيما البعيدة منها. . . وكان المغرب العربى وإفريقية الإسلامية والأندلس أبرز المناطق التى انفصلت. . . ولم ينظر قط إلى هذه الدول إلا على أنها دول مستقلة عسكريًا وسياسيًا، أما العقيدة والشريعة والقيم فواحدة. . . وكانت كلها تنتسب إلى الإسلام وتحمل رايته، وقد كان الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) يرتبطون بالخلافة العباسية، ويحكمون باسمها، وعاصمتهم القيروان أصبحت من أشهر العواصم الإسلامية نشرًا للثقافة الإسلامية، وعن طريق قوتهم البحرية الهائلة قاموا بغزو مالطة والسواحل الإيطالية الجنوبية، وقد نجحوا فى عهد زيادة الله الأغلبى فى الاستيلاء على صقلية، بقيادة القائد الفقيه القاضى أسد بن الفرات (٢١٢هـ) (١).

أما الأدارسة فقد استقلوا فى المغرب الأقصى، وكانت عاصمتهم (فاس)، وقد حكموا نحو قرنين من الزمان (١٧٢ - ٣٦٣هـ).

وفى المغرب الأوسط (الجزائر) قامت دولة بنى رستم على يد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم؛ الذى كان مولى لعثمان بن عفان (رضى الله عنه)، وهو منشئ مدينة تاهرت (العاصمة)، وكان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويشارك الناس فى أعمال البناء للمساجد ولبيوتهم بيده. . . ومع أنه كان خارجى المذهب

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٠٢، بتحقيق كولان وبروفنسال - بيروت.

إلا أنه كان ـ ودولته ـ ملتزمًا بالشريعة فى إطار المذهب الإباضى . . . وقد عاشت الدولة أكثر من قرن ونصف (١٤٤ ـ ٢٩٦هـ) [١]، حتى قضى عليها الشيعة الفاطميون، وقد ازدهر المغرب الأوسط على عهد الرستميين، وأصبحت تاهرت مدينة علمية وثقافية حافلة بالأجناس من شتى أنحاء العالم الإسلامى [٢]، وكانت الدولة على علاقة طيبة بالأمويين فى الأندلس، وقد عملوا على نشر الإسلام فى داخل إفريقية [٣] .

وكانت دولة بنى مدرار (واسول) فى سجلماسة؛ تشبه أن تكون جناحًا خارجيًا لبنى رستم، وكانت مثلها فى الاعتدال والالتزام بالإسلام، وكانت عاصمتها سجلماسة [٤]، وعاشت أكثر من قرنين (١٤٠ ـ ٣٤٩هـ)، وكانوا لا يبيحون دم مسلم إلا بحقه، ولا يميلون إلى تكفير أحد من المسلمين [٥]، وقد تعاونوا مع بنى رستم فى أمور كثيرة نافعة؛ حتى قضى عليهم الشيعة!!

فهكذا ارتبطت هذه الدولة بالإسلام وشريعته وحضارته وجاهدت فى سبيله على الرغم من استقلالها السياسى .

المرابطون فى المغرب: نموذج رائع للإخلاص للإسلام

أما المرابطون الصنهاجيون (٤٣٠ ـ ٥٤٠هـ) فدولتهم ـ بحق ـ إحدى أعظم الدول الإسلامية فى إفريقية والمغرب العربى، وقد قامت هذه الدولة على أساس العناق التام بين الدولة والأمة، على كتاب الله وسنة رسوله، والجهاد فى سبيل إقامة مجتمع إسلامى، ونشر الإسلام فى إفريقية، وقد وضعوا نصب أعينهم تربية الشعب على أسس إسلامية جادة، والتقدم به للقضاء على الوثنيات فى إفريقية، وحركات المرتدين، وأدعياء النبوة فى قبائل غمارة وبرغواطة، وكان ابن ياسين يلقب بمحيى السنة، وقامع البدع والأضاليل .

(١) المصدر السابق ١/ ١٩٦ .
(٢) أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس، ص : ١٨٨ ، طبع الإسكندرية .
(٣) المرجع السابق .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ١/ ١٥٦ .
(٥) أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس، ص: ١٨٨ ، ١٨٩ .



وقد أحدث (عبد الله بن ياسين) هزة فى حياة العامة فى هذه المنطقة، فغيَّر بعض العادات، وأحيا الروح الدينية، وأقام حدود الإسلام، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس [1].

وكان رجال الدولة المرابطية على هذا المنهج، ومنهم يحيى بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر اللمتونى، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم، وقد علَّموا الناس فى الأربطة الدين والعمل؛ فاعتمد رجال الرباط على أنفسهم فى الحصول على كل ما يحتاجون إليه، عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البر والبحر، كما كانوا يعدون طعامهم بأنفسهم، مع الاكتفاء فى الطعام بأقل القليل، وبالخشن من الثياب؛ فقد كانت حياتهم البسيطة متواضعة، خشنة، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة، وآلوا على أنفسهم الإخلاص، والتوبة، والتعبد [2].

وقد تمخضت جهود المرابطين عن إسلام شعوب (التكرور) بغرب إفريقية؛ التى كانت أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام، فى حركة المرابطين الأولى، فى أيام الشيخ عبد الله بن ياسين، فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة إلى هذا الدين، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف، والفولبى، والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية فى السودان الغربى، فاستوعبت هذه القبائل الإسلام، وأخذوا من حضارة العرب، وتأثروا بالشريعة الإسلامية، واستعانوا بالدعاة من المرابطين فى بلاطهم؛ لتعليمهم الشريعة والقراءة، والكتابة، حتى إنهم قلدوهم فى ملابسهم، ووقفوا معهم فى موجة اندفاع المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين، وجهودهم فى نشر الإسلام فى منتصف القرن الحادى عشر (السادس الهجرى)، ويمدون نفوذهم إلى الجنوب، وإلى الجنوب الشرقى، فتكونت بعد ذلك من هذه الأراضى إمبراطورية مالى.

وانتشر مسلمو غانة الذين اعتنقوا الإسلام فى اتجاه ديارا، وغلم، ومينا، واتجهوا خاصة إلى ديا، ومن ديا تحركت مجموعات من الديولا؛ الذين حملوا

---

(١) د. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين فى نشر الإسلام فى غرب إفريقية، ص: ٦٦، ط دار الغرب (١٩٨٨م)، وانظر إبراهيم الجمل: الإمام عبد الله بن ياسين، ص: ٦١، دار الإصلاح بالدمام.
(٢) د. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص: ٧٤.





الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات، وهناك أنشئوا مراكز إسلامية مثل (بيجو) بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود، ومن هناك انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو، والكونج[1]؛ وهى مدن تجارية قامت الحياة فيها على أساس الشريعة الإسلامية، والرباط فى سبيل الله.

دور الموحدين الحضارى

وأما الموحدون فقد حملوا الراية فى المغرب والأندلس بعد المرابطين[2]، واستمروا فى عملهم لأكثر من قرن (٥٤٠-٦٥٠هـ)، وما فتئوا يحملون شعلة الإسلام، ويوحدون الأمة، وكان الخليفة عبد المؤمن بن على فقيهًا ومحدثًا وأصوليًا[3].

ولا ينكر باحث أن ثمة أخطاء وقعت فيها الدولة الموحدية، على أن تلك الأخطاء التى تقرؤها فى سطور الدولة الموحدية الأولى قد اقتصرت على حياة المهدى بن تومرت تقريبًا، وكما يخرج النور أحيانًا من التراكمات المظلمة، وكما تنبثق الشمس من بين السحب . . . كذلك وقع فى مسيرة الدولة الموحدية؛ فما إن مات المهدى بن تومرت سنة (٥٢٤هـ) حتى بدأت موازين دولة الموحدين تعتدل على يد (عبد المؤمن بن على)؛ الذى خلف محمد بن تومرت، ومات سنة (٥٥٨هـ) . . . ثم ابنه يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠هـ) فابنه يعقوب المنصور (ت٥٩٥هـ) بطل معركة (الأرك)؛ التى وطدت لدولة الإسلام فى الأندلس نحو ربع قرن من الزمان، ثم الناصر (ت٦١٠هـ)[4].

ولهذه الدولة الموحدية الفضل فى الوحدة التى انتظمت المغرب والأندلس، كما أن لها اليد الطولى فى عودة تونس إلى حظيرة الإسلام بعد أن استولى عليها النصارى النورمان المتعصبون.

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٢٦-١٤٧، وكل هذه القبائل فى السودان الغربى (غرب إفريقية)، وقد سيطر الماندنجو على نهر النيجر والأماكن المطلة عليه، وأقاموا كيانات سياسية.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ٤/ ٧ وما بعدها.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ المغرب ١/ ١١٤، نشر مكتبة السلام بالدار البيضاء.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ٤/ ١٢٧، وما بعدها (بتصرف).



وقد اشتهر عن الدولة الموحدية ـ وبخاصة فى عهد أمرائها الأقوياء ـ ازدهارها الاقتصادى ؛ الذى تمثل فى أربعة مظاهر أساسية :

أولاً : كثرة المصانع سواء فى المغرب أو الأندلس .

ثانيًا : التبادل التجارى مع مختلف أقاليم حوض البحر المتوسط ؛ حيث كانت للموحدين مكاتب تجارية تشبه الفنادق فى بعض مدن فرنسا وإيطاليا ، كمرسيليا وجنوة والبندقية .

ثالثًا : العملة الموحدية القوية .

رابعًا : الأسطول التجارى البحرى ؛ الذى كانت تفرزه صناعة السفن(١) .

وفى المجال العقدى أو الفكرى ؛ وقف الموحدون فى وجه السيطرة الكاملة التى تمتع بها فقهاء المذهب المالكى ، والذين كادوا يغلقون أبواب الاجتهاد ، فلما جاء الموحدون دعوا إلى الاجتهاد ، وشجعو الربوع إلى الكتاب والسنة ، وازدهرت فى عهدهم دراسة علمى الكلام والأصول ، وكان من نتيجة ذلك أن لان فقهاء المالكية ، وتركوا التعصب المذهبى الأعمى ، ومالوا إلى النظر فى كتب الأصول .

الحياة الدينية والتربية والتعليم فى المغرب العربى (الإسلامى)

وفى المغرب الإسلامى كله بصورة عامة منذ الفتح وحتى سقوط دولة الموحدين ؛ كان المسجد يقوم بدور تعليمى كبير ، بحيث إنه لم يكن ثمة مسجد فى مدينة خال من المدرسين (٢) ، وقد أطلق عليه فى المغرب العربى اسم (المسيد) ، وكثيراً ما كان هذا (المسيد) علمًا على «ملحق» يلتصق بالمسجد . . . ويفرد للناحية التعليمية .

---

(١) دكتور/ أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٤/ ١٥٣ ، وما بعدها ، طبع دار النهضة العربية ـ مصر .

(٢) توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ، ص : ٨١ ، كتالوج بجاية ، ص : ٥٨ .



وقد تطور هذا «المسيد» فى القرن الخامس الهجرى، فاستقل بنفسه عن المسجد، وصار كيانًا بذاته من حيث البناء والهدف[١]؛ لكن هذا التطور لم يمنع المسجد من أن يكون محل تعلم، إلا أنه ارتفع طبقة فصار بمثابة دار «للتعليم الثانوى» أو «التعليم العالى»، إلى جانب «المسيد» و«المسجد» وجدت «الزاوية» فقد كانت الزوايا كثيرة جداً.

وكانت الكتاتيب مكانًا لأشهر أنواع التعليم الابتدائى، ويبدو أنها كانت قريبة ـ فى تخصصها ـ من عمل «المسيد»، وإن كانت تتميز بملكيتها الخاصة.

ويبدو أن ما عرف فى بلدان المغرب العربى باسم «الشريعة»؛ كان يقوم أحيانًا مكان «الكُتّاب»، وهى «خيمة مدرسية عند البدو»[٢] إلى جانب كونه مصلى تقام فيه «الأعياد»، وربما صلوات الجُمَع، ومن المحتمل أن «الشريعة» كانت محل تعليم البدو فى مقابل «المسيد»؛ الذى كان محل تعليم أهل المدن، وكان غالبًا يطلق على ملحق بالمسجد، وكان ينتقل بانتقال الحى وفق ضرورة الانتجاع، أو دواعى تزاحم القبائل، ويتعلم فيها الصغار من الجنسين (الأحداث)[٣]، وفى المدن المغربية الكبرى كان يوجد لون من التعليم العالى (الجامعى)، وعلى سبيل المثال، فقد أنشأ الناصر بن علناس المتوفى سنة (٤٨١هـ) فى بجاية (الجزائرية) معهد «سيدى التواتى»؛ الذى يحتوى على ثلاثة آلاف طالب وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية[٤]، ولقد ازدهرت الحياة العلمية فى المغرب العربى ازدهارًا كبيرًا تدلنا عليه هذه المكانة التى احتلتها عواصم المغرب الحضارية آنذاك كـ «فاس والقيروان وتلمسان وبجاية وتونس» وغيرها، وقد برز فى هذه العواصم العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم من طوائف الاشتغال بفنون العلم المتعددة.

---

(١) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة فى المغرب العربى، ص: ٧١، ٧٢، طبع تونس.
(٢) المرجع السابق، ص: ٧٢.
(٣) كتالوج بجاية، ص: ٦٧، نشر الجزائر بإشراف الدكتور/ بوريبة، عميد كلية الآداب الأسبق بالجزائر.
(٤) ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، ص: ٨٩، حاشية، طبع نهضة مصر.



ولقد لقيت علوم القرآن والسنة ـ من تفسير وحديث وقراءات وفقه ـ اهتمام الدول المغربية، وجمهرة المسلمين.

وقد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة فى كتب الفروع، وفقًا لمدرسة الحديث؛ التى كان إمامها «مالك» إمام أهل الحديث بالمدينة، وكانت كتب المالكية الشهيرة؛ كموطأ الإمام مالك، والتلقين لعبد الوهاب البغدادى، والواضحة لابن حبيب (١٦٣هـ/ ٧٧٩م) «والعتيبة» للعتبى[1]، و«الأسدية» التى جمعها أسد بن الفرات (٢١٣هـ/ ٨٢٨م)[2] أثناء تلمذته على «عبد الرحمن بن القاسم» (ت١٩١هـ/ ٨٠٦م) إمام المالكية بمصر، «والمدونة» أو «المختلطة» التى جمعها فى فقه المالكية أبو سعيد عبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون والمتوفى سنة (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)؛ على رأس الكتب التى تجد من المغاربة أكبر اهتمام.

الحياة الدينية والعلمية فى إفريقية السوداء

وإذا ما عبرنا منطقة الشمال الإفريقى، ودخلنا إلى إفريقية السوداء؛ فسوف نجد جهودًا شعبية إسلامية ناجحة، تكررت فى الأمكنة والأزمنة المختلفة. . . وحسبنا هنا فى عملية التحليل التى نقوم بها ـ لدحض الآراء العمومية غير العلمية ـ أن نرصد بعض المحاولات البارزة التى نجح أصحابها فى نشر كلمة الله، وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومقاومة الجهل والبدع والانحلال.

لقد شهدت بلاد الهوسا فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (١٥ للميلاد) تحولات خطيرة وحركة إصلاحية عظيمة قادها بعض السلاطين كسلطان (كانو) محمد رمفا، وسلطان (كتسينا) محمد كورو، وسلطان (زاريا) محمد رابو، الذين اعتنوا اعتناء كبيرًا بإحياء الشعائر الدينية، ومحاربة الوثنية، وإضفاء الثوب الإسلامى على النظم السياسية، بالإضافة إلى توسيع قاعدة التعليم، وتشجيع العلماء لنشر العلم فى بقاع البلاد المختلفة، ونخص فى هذا المجال

(١) الحلة السيراء ٢/ ٣٨١، بتحقيق: حسين مؤنس، طبع مصر.
(٢) ابن خلدون: المقدمة ٣/ ١٠٢٢، بتحقيق: على عبد الواحد وافى، طبع مصر.



السلطان محمد رمفا؛ الذى وضع اللبنة الأساسية للبنية السياسية والاجتماعية والشرعية للدولة، والذى غيَّر من ملامح الدولة شبه الوثنية، وأدخل نظام الدواوين الإسلامية فى سلطنته(1).

ولقد تزامن عهد هذا السلطان مع زيارة أحد كبار العلماء المجاهدين من الشمال الإفريقى لبلاد السودان الأوسط والغربى، وخاصة أغذر وكاتسينا وكانو وستفى... وذلك الشيخ هو محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى التواتى.

وتذكر بعض المصادر أن المغيلى أنشأ مدرسة إسلامية فى كاتسينا، وجلس يعلم الناس شؤون دينهم... وأثمرت مجهودات محمد بن عبد الكريم المغيلى فى تخريج عدد كبير من العلماء، وتأسيس مدارس علمية كثيرة(2).

وفى الربع الأخير من القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ظهرت حركة الشيخ (عثمان بن فودى) النيجيرى (١١٦٦-١٢٣٣هـ) (١٧٥٢-١٨١٧م)، وكانت تقوم على نشر الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات التى لحقت به.

وكان الشيخ (عثمان بن فودى) فى بداية دعوته يحدث الناس فى خمسة أمور رئيسة: **أولها:** ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة، **وثانيها:** ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات. **وثالثها:** فى رد الأوهام والآراء الخطأ فى أذهان الطلبة؛ مما تلقوه من علم الكلام، وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعى، **ورابعها:** فيدور حول إخماد البدع الشيطانية التى أحدثها الناس فى دين الإسلام، ورد العوائد المخالفة للشرع.

ويختص الأمر الخامس: بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها، وتقريبها من فهم العوام.

وعندما تكاثر أتباعه، وهاجر إليه الناس من أقاصى البلاد مستمعين لوعظه، ومقتدين بسلوكه، حسده علماء زمانه، وأظهروا له العداوة والبغضاء، ووشوا به

(1) أحمد محمد كانى: الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقية، ص: ٣٥، ط1، الزهراء للإعلام العربى(١٤٠٧هـ)- مصر.
(2) المرجع السابق.



لدى الحكام لتعطيل مسار دعوته . . . وبالرغم من ذلك فلم يكترث الشيخ/ عثمان بن فودى بكيدهم، ومضى يحاربهم باللسان والقلم، داحضًا افتراءاتهم، ومبلغًا رسالته بصدق وإخلاص أذهل الناس جميعهم .

ولقد استطاع الشيخ/ عثمان بن فودى ـ بعد فترة وجيزة من قيام دعوته ـ تكوين جماعة تسمى بـ (الجماعة)، وكان قوامُها تلاميذ الشيخ نفسه، الذين تلقوا العلم على يديه، والذين صقلهم فكريًا، وهيأهم ذهنيًا وعلميًا للقيام بمسؤولياتهم فى التربية والدعوة إلى دين الله [1] .

وفى سبتمبر (١٧٨٨م) استدعى سلطان غوبر باو علماء بلاده، وكان من بينهم الشيخ/ عثمان بن فودى للاجتماع به فى مناسبة عيد الأضحى، ولما اجتمعوا به فى مكان يسمى (مغمى) حاول سلطان غوبر إرضاء الشيخ/ عثمان ابن فودى؛ بإعطائه خمسمائة مثقال من الذهب كمكرمة له . . . لكن الشيخ/ عثمان بن فودى ـ على غير عادة العلماء الآخرين الذين كانوا معه ـ رفض تلك الهدية، وطالب بدلاً منها بخمسة أشياء :

١ـ أن يسمح له بالحرية فى التجول فى البلاد للدعوة فى سبيل الله .

٢ـ ألا يُعترض سبيل أى شخص يريد الاستجابة لدعوة الشيخ .

٣ـ أن يوقر كل عالم يلبس العمامة .

٤ ـ أن يطلق سراح المسجونين «السياسيين» .

٥ ـ ألا تفرض ضرائب باهظة على الرعية [2] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان غوبر «باو» قد قبل هذه «الشروط» مرغمًا، وكان هذا الموقف نقطة انطلاقة لدعوة الشيخ/ عثمان بن فودى، واعتبر أول انتصار سياسى على حكام بلاد الهوسا .

وهكذا قدم الشيخ/ عثمان بن فودى تجربة لحركة إسلامية شعبية إصلاحية رائعة .

---

(١) أحمد محمد كانى : الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقية، ص : ٧٢، ٧٣ .

(٢) المرجع السابق، ص: ٧٦ .





المجتمع الإسلامى فى العصرين المملوكى والتركى

من المعروف لدى الدارسين المتخصصين أن كل عصر يقاس بمدى مواجهته للتحديات التى تفرض عليه من خارجه أو داخله، ووفقًا لنوع هذه التحديات يتحدد المسار التاريخى والعطاء؛ اللذان يكيِّفان المجتمع تكييفًا خاصًا . . .

وفى ضوء هذه الحقيقة فإننا لا نتوقع أن يكون المجتمع الإسلامى فى العصرين المملوكى والتركى شبيهًا بالعصرين الأموى والعباسى كل الشبه؛ بل لا بد - مع وجود الأرضية العقدية والحضارية المشتركة - من وجود خلاف، ينطلق من عصر جديد له ظروفه وتحدياته الجديدة . .

لقد كان المجتمع الإسلامى فى عصر الأمويين والعباسيين يعيش ظروف تفوق حضارى، وثقة مطلقة فى الذات المسلمة، وتفاعلاً فكريًا وحضاريًا؛ ينطلق من الداخل مع العالم كله، ويسعى - وقد نجح فعلاً فى سعيه - إلى أن يكون الحضارة الأعلى والكبرى فى العالم كله لعدة قرون، بصرف النظر عن وجود أزمات أو مشكلات.

أما فى العصرين المملوكى والتركى فقد كان الغرب قد اتخذ زمام المبادرة بعد سبعة قرون من الانحدار، وهو إذا كان معطلاً عقديًا وحضاريًا، ولا يملك ما يصدره للعالم الإسلامى فى هذا المستوى، فقد عمد إلى الغزو العسكرى الجماعى؛ الذى يشبه أن يكون غزو البرابرة الهمج - فى لحظات شعور الموت - للعالم المتحضر الأرقى فكرًا وحضارة!!

ولو تعمقنا فى الحالة الحضارية؛ التى كانت عليها جيوش الصليبيين، التى قاتلت المسلمين من (مماليك أو أتراك)؛ فسوف نجدها ـ فى الفكر والثقافة والعلوم والأخلاق ـ أقل بقرون كثيرة من المستوى الإسلامى العام!!

وقد فرض هذا التحدى العسكرى الصليبى ـ والوثنى أحيانًا على يد التتار ـ على المماليك والأتراك أن يهتموا بالجوانب العسكرية، على حساب الجوانب الحضارية الأخرى، وما كان بإمكانهم أن يرفضوا المواجهة، ويتخلوا عن هذه الوظيفة التى فرضت عليهم.

وقد أتاح هذا التحدى العسكرى لخصومهم أن يتهموهم بالخمول الحضارى، وهو اتهام غير صحيح، فضلاً على أنه لم يكن باستطاعتهم تجاهل التحدى الخارجى كما ذكرنا، ومع ذلك فإن ثمة إسهامات حضارية كبيرة قام بها هؤلاء وأولئك فى خدمة الشريعة الإسلامية.

إن القاهرة ـ مثلاً ـ فى العصر المملوكى (٦٥٦ ـ ٨٥٧هـ) يقول عنها ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)؛ الذى زارها، وعاش فيها آخر أيامه:

(إنها جنة الدنيا، مكتظة بجميع أجناس البشر، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة)، وفى تعليقه على كلام ابن خلدون يضرب (ول ديورانت) المثل بقايتباى بأنه: «أعظم البناة بين المماليك البرجية»، وبالرغم من أن الحرب أنهكته؛ فقد دبر الأموال لتشييد المبانى النفيسة الكثيرة فى مكة والمدينة والقدس، وجدد فى القاهرة قلعة صلاح الدين والأزهر، وشيد نزلاً، وبنى داخل العاصمة مسجداً [1].

إن ابن بطوطة (ت ٩٧٩هـ/ ١٥٧٧م) ـ مع ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، وابن الخطيب(٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) ـ من هؤلاء الذين نجد عندهم وصفًا للحياة الاجتماعية فى هذين العصرين المملوكى والتركى... وعندما نتتبَّع وصف هؤلاء وغيرهم؛ فسوف نجد الشريعة الإسلامية هى المهيمنة على روح المجتمع

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٦/ ٥٢، ٥٣، ٥٤.

وسلوكياته، مع وجود أخطاء بشرية، ولا سيما في مستوى العسكر والسياسة !! و«ديورانت» - وهو يحلل لنا هذين العصرين - نجده أكثر دقة وإنصافًا من أكثر المؤرخين المسلمين . . . فقد زار ابن بطوطة أكبر الحكام المسلمين في عصره، والتقى بالعلماء أيضًا ، وحين عدد أعظم الملوك في عصره حصرهم في سبعة ملوك، ذلك أن منهم ستة من المسلمين، وواحدًا صينيًا[١]، وأما العلماء في هذا العصر فقد كانوا كثيرين؛ مثل الشعراء، وكانوا يكتبون باللغة العربية، كما جمعوا في كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف، وبين النشاط السياسي والإداري [٢]؛ وكان أعظم الكتاب إنتاجًا في التاريخ الطبيعي من المسلمين خلال القرنين السابع والثامن الهجري، وإن الكتاب العظيم (حياة الحيوان) الذي ألفه محمد الدميري (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) لمن أقوى الشواهد على هذه الحقيقة، كما كانت المستشفيات كثيرة في العالم الإسلامي [٣] .

وقد كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع والقضاء، وكان الفقهاء هم القائمون على حراستها والاستنباط منها، ويفسر لنا الأستاذ/ حنفي محمود خطاب ما كان لعلماء الدين من سطوة ونفوذ في الدولة المملوكية بصفة عامة فيقول : «إن الدين كان منبع القانون بين الناس، وكان سلاطين المماليك لا يعرفون أحكام الشريعة، أو وسائل تطبيق تلك الأحكام؛ لأنهم عاشوا عيشة عسكرية منذ نشأتهم، ولم يعرفوا من شؤون الدين سوى ما تلقنوه من مبادئه الأولى في شبابهم الأول بثكنات القلعة وطباقها ، وكان من الطبيعي أن يترك المماليك لعلماء الدين تلك الناحية من شؤون الدولة» [٤]. وقد برز من علماء الإسلام في هذا العصر كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام/ عز الدين بن عبد السلام (٦٦٠هـ) ، وتقي الدين عبد الوهاب بن نبت الأعز (قاضي قضاة الشافعية ٦٥٤هـ)، وصاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام/ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، وهو أشهر من أن نقف عنده !!

---

(١) المرجع السابق ٢٥/ ٧٤، ٧٥ .

(٢) المكان السابق.

(٣) المكان السابق.

(٤) حنفي خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير (١٩٤٣م) جامعة القاهرة، ص: ١٢١ .

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبى والرسمى، فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم.

وقد وقف العلماء وقفات مشرفة وجريئة ضد السلاطين، ورفضوا الإفتاء على هواهم ورغباتهم، كما فعلوا مع السلطان الظاهر برقوق؛ عندما شكا لهم بأن الخزائن خالية من الأموال، والعدو (المغول) زاحف على البلاد، وأنه يريد أخذ نفقة العسكر من مال الأوقاف المرصدة للجوامع والمدارس، فلم يوافقوا على ذلك؛ بل أكثر من ذلك أغلظوا على السلطان القول؛ لكن لما طال الأمر اتفقوا مع السلطان بأن يؤخذ من مال الأوقاف وخراج الأراضى سنة كاملة فقط وتبقى الأوقاف على حالها، وهذا يعتبر انتصاراً شبه كامل لاحتجاج علماء الدين، كما كان لعلماء الدين دور كبير فى الأزمات وعند وقوع البلاد [(١)] .

وقد حظى علماء الدين بمكانة كبيرة فى عهد السلطان المملوكى الظاهر برقوق (٧٨٤ ـ ٧٩١هـ)، فقد كان يوقرهم ويحبهم، ويقوم للفقهاء إذا دخلوا عليه . . . وحتى هؤلاء الذين أخطأ فى حقهم؛ مثل الشيخ/ شهاب الدين الشافعى . . . الذى ما إن وصل إلى علمه أنه كثير الورع والزهد؛ حتى أرسل خلفه واعتذر إليه، ومن ثم أعاده إلى بلده مكرمًا [(٢)] .

وفى عهد السلطان المملوكى المؤيد شيخ (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ) ارتفعت مكانة العلماء؛ نظراً لأن السلطان نفسه كان متدينًا، وكان يحب الدين، وينقاد للشرع فى جميع أموره وأحواله، يدلنا على ذلك أن السلطان نفسه كان يخرج وقت الأزمات واشتداد البلاء، وهو لابس جبة صوف بيضاء، وعلى رأسه عمامة صغيرة متجرداً من جميع ملابسه السلطانية الفاخرة، يخرج وبصحبته الخليفة والقضاة وسائر علماء الدين، ثم يصلى من غير سجادة، ويمرغ وجهه فى التراب ويبكى تضرعًا لله تعالى [(٣)] .

---

(١) شريفة المنديل: الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الثانية ـ رسالة ماجستير ـ كلية الآداب للبنات فى الرياض (١٤٠٩هـ)، ص: ١١٧ .

(٢) المرجع السابق، ص: ١٢٠ .

(٣) ابن إياس محمد بن أحمد: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٢/٤٦، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٣هـ).



وقد كان للعلماء كلمة مسموعة وأمر نافذ لدى السلطان عند استشارته لهم فى أى أمر، فعندما اجتمع السلطان بهم عام (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) واستشارهم فى أمر قتال يوسف، أفتوا بجواز قتاله؛ نتيجة لسوء أفعاله وسوء سيرته، فما كان من السلطان إلا أن أسرع فى تجهيز العسكر تنفيذاً لذلك[1]، وعندما رفض القاضى جلال الدين البلقينى أن ينفذ ما أراده السلطان من الخطيب عند ذكر اسمه بالدعاء فى الخطبة أن يهبط درجة؛ حتى يكون ذكر اسم الله تعالى ورسوله فى مكان أعلى من المكان الذى ذكر فيه اسمه، لم يعارضه فى ذلك، على الرغم من أن قصد السلطان من ذلك هو التواضع والخضوع لله تعالى ورسوله الكريم، كما أن بعض الجوامع قد فعلت ذلك مثل جامع الأزهر، وجامع ابن طولون[2]، مما يدل على مدى قوة كلمة علماء الدين ونفاذها حتى على السلاطين أنفسهم، وتوجيههم إياهم إذا أخطئوا فى الاجتهاد .

كان السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ) منقاداً للشرع يحب الفقهاء ويقربهم . . . وكانت له ثقة فى القاضى عبد الله بن عبد الباسط، فكان منقاداً له كما ينقاد الطفل إلى أبيه . . . وله كلمة مسموعة لديه، يدلنا على ذلك أنه عندما تضرر الناس بسبب أمر السلطان بعدم زراعة قصب السكر إلا للسلطان فقط، تكلم معه القاضى عبد الله بن عبد الباسط فى ذلك فعندئذ أذن للناس فى زراعته[3] .

وكان لعلماء الدين دورهم فى توجيه السلطان إذا أخطأ فى الاجتهاد، فمن ذلك أنه وقع الطاعون فى الديار المصرية، والذى سمى فيما بعد (بالفصل الكبير)؛ لأنه انتشر فى جميع نواحى بلاد العالم، فلما رأى السلطان ذلك اجتمع بالخليفة والقضاة الأربعة ومشايخ العلم، واستفتاهم فى ذلك، وقال : أخرج أنا والناس إلى الصحراء ونستسقى هناك، فعارضه أحد علماء الدين فى ذلك،

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٩-٤٠، وانظر : شريفة المنديل : مرجع سابق، ص: ١٢٥ .

(٢) المرجعين السابقين .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ص: ١٢٦ .



وقال له : إن ذلك ليس من فعل السلف ، وإنما ذلك من سوء أفعال الناس وفتنهم ؛ حيث يبعثه الله تعالى عقوبة لهم على ذلك [١] .

وقالوا للسلطان : إنه لا بد من أن يمنع المظالم التى كثرت فى البلاد ، ويبطل المكوس ، ويمنع خروج النساء وهن متزينات إلى الأسواق ، كما يأمر الناس بكثرة الدعاء والاستغفار ، وانفض المجلس على ذلك ، وعمل السلطان بكل ما قرره معهم .

وقد كان السلطان يستشيرهم فى كثير من أموره التى يعجز أن يجد حلاً فيها ؛ حيث يجد عندهم الحل الكافى والجواب الشافى ، كما فعل عند استشارتهم فى أمر زكاة الأموال الظاهرة والباطنة للناس .

وكان السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) يكثر من فعل الخير والبر ، شديد التدين ، وقد استبشر أكثر الصالحين بسلطنته . . . ولقى فى عهده علماء الدين كل حظوة وتقدير واهتمام ، وكان يسعى لتطييب خاطرهم ، ويرضيهم بشتى الوسائل ؛ فمن ذلك ما وقع بين قاضى القضاة سعد بن الدسيرى ، وبين قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر من تشاجر ، وما أدى إليه ذلك التشاجر من عزل القاضى ابن حجر نفسه عن القضاء ، فسعى السلطان إلى تطييب خاطره ، فأعاده إلى منصب القضاء ، وخلع عليه وأكرمه .

وكان يهتم بالعلم والعلماء ، ويحضر الحفلات التى يقومون بها من أجل ذلك ، ومن ذلك حضوره لحفلة قام بها شهاب الدين بن حجر ؛ بسبب انتهائه من تأليف كتاب (فتح البارى فى شرح البخارى)[٢] .

وقد كان أكثر السلاطين المماليك يخضعون لشروط بعض القضاة ، مما يدل على مدى المكانة الكبيرة التى وصلوا إليها ، لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتراط على السلاطين [٣] ، وفى عهد السلطان قانصوه الغورى (ت ٩٢٢هـ) عارض علماء الدين رغبة السلطان فى أخذ أموال الأوقاف والنفقة بها على الأمراء والمماليك .

---

(١) المقريزى : السلوك ٤/ ٢ ، ص : ١٠٢١ ، نقلاً عن شريفة المنديل : مرجع سابق ، ص : ١٢٧ .
(٢) ابن إياس المصدر السابق ٢/ ٢٠٧ ، وشريفة المنديل ، ص : ١٣٠ .
(٣) شريفة المنديل : مرجع سابق ، ص : ١٣١ .

وفى عهد السلطان الغورى - أيضا - حدثت كائنة عجيبة لعلماء الدين عامة والقضاة بشكل خاص ؛ وهى أنهم عُزلوا جميعًا بسبب معارضتهم لرأى السلطان فى مسألة شرعية ، فغضب السلطان منهم ، وعزلهم جميعًا فى وقت واحد ، حتى أن مصر بقيت حوالى خمسة عشر يومًا لم يعقد فيها نكاح ، ولا وقع فيها أى حكم من أحكام الشريعة [1] .

وتدلنا تلك الحادثة على مدى جرأة علماء الدين ، وعلى مدى قوتهم فى مواجهة الظلم والخطأ ؛ حتى ولو كان ذلك سببًا لعزلهم وإقصائهم عن وظائفهم .

ولم ينقص ذلك كله من مدى عزمهم وقوتهم ؛ بل على العكس زاد من قوتهم ومقدرتهم ، وزادت قيمتهم عند الناس والأمراء ، فقد كان لهم الدور الكبير والفعال فى تولى السلطان طومان باى ، فعندما قتل السلطان الغورى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٦م) وقع اختيار الأمراء على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع ، ولكن الأمراء ألحوا عليه وأجبروه بحجة أنه ليس هناك سلطان غيره ، فوافقهم ، وخاصة بعد أن ضغط عليه الشيخ/ أبو السعود الجارحى ، والذى أتى بالمصحف الشريف وحلف الأمراء عليه ، على أنه إذا تسلطن الأمير طومان باى لا يغدرونه ، ولا يخامرون عليه ، ولا يطالبونه بنفقته ، وينتهون عن مظالم المسلمين ، فحلفوا على ذلك ، وانتهى الأمر على سلطنة طومان باى على ذلك [2] .

وقد بقى الأمر بين طومان باى والعلماء على ذلك ؛ لكن عهد طومان باى لم يستمر إلا سنة واحدة ، فقد استولى العثمانيون على مصر سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، وحملوا الراية . . .

لكن العلماء - على أية حال وكما تدلنا الوقائع السابقة - كان لهم وجودهم الشرعى ، وقد أدوا واجبهم فى صياغة المجتمع صياغة إسلامية .

---

(١) المرجع السابق ، ص : ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٢) المكان السابق .

وقد كان العثمانيون - فى أصلهم - قبائل تركية فرَّت من بلاد آسيا الوسطى أمام الزحف المغولى، وقد أسلم جدهم (عثمان بن طغرل)، واستوطن وأتباعه بلاد الأناضول، ومن ثم نجح فى تشكيل دولة تنسب إليه، فاتخذ مدينة (قره حصار) قاعدة له، واستقل بعد مداهمة المغول للسلاجقة، وأصبح ملاذًا لكثير من المسلمين الذين يفرون من وجه التتار، وخاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه؛ ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده؛ دلالة على ارتباطهم بالإسلام وليس بالعصبية، وتوفى فى سنة (٧٢٧هـ)، وكان خلفاؤه من بعده قد أخذوا على عاتقهم جهاد البيزنطيين، وتقدم العثمانيون فى أوروبا وفتحوا مناطق واسعة، وأخيراً تمكن محمد الثانى من فتح مدينة القسطنطينية عام (٨٥٧هـ)، وغدا اسمها (إسلام بول)، ويطلق عليها (إستانبول) [1] .

ولم يكن انتصار الغازى محمد الثانى فى القسطنطينية هو أول نصر كبير يحرزه آل عثمان؛ ولكن (الرمز) أو القيمة المعنوية لهذا الانتصار قد طغت على كل ما عداها من القيم.

لقد أحرز الفاتح أول انتصاراته وأضخمها على ضفاف البسفور، وهو ابن اثنين وعشرين عامًا (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، فلم يداخله الغرور لما أحرزه، ولم يأخذه العجب بما أنجزه وحققه، فمضى للصلاة فى مسجد (أياصوفيا) شاكراً لله على ما منحه من النعمة، وأطلق على المدينة المحررة فوراً اسم مدينة الإسلام (إسلام بول)، وأسرع إلى موضع استشهاد الصحابى (أبى أيوب الأنصارى)؛ الذى استشهد فى حصار القسطنطينية أيام معاوية بن أبى سفيان (سنة ٥٢هـ)، فأقام بجواره مسجداً مبرهنًا على أن الفتح العظيم لم يكن إلا امتداداً لجهاد العرب المسلمين [2]، من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين.

---

(١) إسماعيل ياغى، ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ١/ ١٥١، ١٥٢، ط دار المريخ - الرياض (١٤٠٤هـ).

(٢) من المعروف شرعًا أن بناء المساجد على القبور مخالف للهدى النبوى، ويجب الإقلاع عنه.

وعرف الفاتح أن هذا النصر لا بد وأن يستثير حقد الحاقدين من الفرنج والصليبيين، فمضى مجاهداً فى سبيل الله، محتسبًا الأجر والثواب على الله، فأتعب الدنيا وأتعبته حتى خرج من الدنيا مخلفًا للمسلمين فخر الدنيا وعزة الإسلام (١).

وقد اتجه حفيد محمد الفاتح السلطان سليم إلى دخول الأقاليم العربية، والوقوف فى وجه البرتغاليين الذين أرادوا حربًا صليبية واضحة، وتعدوا من جهة الجنوب، فدخلوا عدن، واحتلوا مناطق الخليج العربى، كما استطاعوا بمساعدة الأحباش دخول البحر الأحمر، كما استطاع العثمانيون دحر الفرس الذين اتخذهم البرتغاليون مطية لهم.

وكما انتصر المماليك فى معارك كثيرة برية وبحرية كان أشهرها (عين جالوت ٦٥٨هـ)، كذلك فإن العثمانيين قد واجهوا الزحف الصليبى الذى كاد يدخل فى أعماق الغرب والشرق الإسلامى، بعد إسقاطه لغرناطة سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)، وقد زحف الصليبيون فعلاً على تونس والجزائر خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة، ولم يوقف هذا الزحف إلا ظهور القوة العثمانية.

ومن المعروف أن وجود الصليبيين قد فرض على الدولة العثمانية أن تكون فى حالة استعداد حربى دائم . . . وحسبنا أن نذكر هنا بعض هذه الحروب؛ حتى لا يتعجل غير الموضوعيين فى إصدار الأحكام الظالمة على هذه الدولة .

بالإضافة إلى سهرهم الدائم على الشواطئ الإسلامية فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الأطلسى - وهو جهد استمر كثيراً - فقد واجه العثمانيون خلال وجودهم فى القرن التاسع عشر الميلادى وحده (الثالث عشر الهجرى) حملة نابليون بونابرت على مصر، وحملته على الشام، وحرب الصرب (١٨٠٤ - ١٨١٧م)، والحرب مع روسية (١٨٠٦ - ١٨١٢م)، وثورة اليونان (١٨١٢ ، ١٨٢٩م)، ومعركة نافارين البحرية؛ التى اتحدت فيها إنجلترا وفرنسا وروسيا

---

(١) بسام العسلى : الفاتح القائد، ص: ١١-١٢، دار النفائس ، ط (١٤٠٦هـ).

بروح صليبية (١٨٢٧م) ـ ضد الدولة العثمانية، ثم احتلال الجزائر (١٨٣٠م)، وحملة إبراهيم باشا على الشام، بتشجيع من القوى الصليبية الفرنسية، ثم احتلال بريطانيا لعدن (١٨٣٩م)، وحرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م)، وحرب الجبل الأسود (١٨٦٢م)، وحرب الصرب الثانية (١٨٨١م)، والحرب التركية الروسية (١٨٧٨م)، واحتلال فرنسا لتونس (١٨٨١م) وإنجلترا لمصر (١٨٨٢م)، والحرب اليونانية (١٨٩٧م)، واحتلال إيطاليا لليبيا (١٩١١م)، ثم حرب البلقان (١٩١٢م)[1].

وهكذا ـ من خلال نموذج الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ـ نستدل على نوعية العلاقة العثمانية الأوروپية، وأسلوب الصراع؛ الذى كان دائم الوجود بين الدولة العثمانية، وبين أوروپا التى لم تنس أن دولة آل عثمان هى التى أوقفت زحف الصليبيين على العالم الإسلامى بعد إسقاطهم الأندلس !!

لقد كان المجتمع الإسلامى فى العهد العثمانى مجتمعًا إسلاميّا جهاديّا، شأنه شأن المجتمع الإسلامى فى العصر المملوكى، وقد تفوق إسلاميّا وكاد يسيطر على أوروپا؛ لولا ظهور الصفويين الشيعة؛ الذين حركتهم أوروپا الصليبية، فاشتبكوا مع العثمانيين وأوقفوهم، وبددوا طاقتهم فى حروب داخلية !!

وكما خضع المماليك لعلماء الشريعة، وأطلقوا أيديهم، وقبلوا أن يحكم عليهم سلطان العلماء (العز بن عبد السلام) بغرامات وتضحيات كثيرة، كذلك كان العثمانيون يخضعون لعلماء الإسلام والشريعة، ممثلة فى المفتين والقضاة والمحتسبين.

وكان المسلمون الخاضعون للدولة العثمانية ـ كما يقول العلامة الدكتور عمر فروخ ـ رحمه الله ـ «لا يشكون شيئًا يحملهم على النقمة؛ فإن الدولة العثمانية كانت دولة مسلمة . . . وإذا كانت الدولة العثمانية قد مرت فى أواخر أيامها

---

(١) عمر فروخ : تجديد التاريخ فى تعليله وتدوينه، دار الباحث بيروت، ص: ٢٨٠، ٢٨١، بتصرف.

بأحوال قاسية؛ فإن تلك الأحوال كانت خارجة على سيطرة الدولة العثمانية، وكانت قسوتها عامة فى الترك والعرب؛ وفى المسلمين وغير المسلمين، ثم إن المسلمين كانوا يتحملون هذه الأحوال القاسية؛ لأنهم (أو لأن أسلافهم) كانوا قد تمتعوا بالأمجاد التى كانت للدولة العثمانية فى تاريخها الطويل، ثم إن الدولة ليست فى المغانم المادية فحسب؛ بل الدولة جو روحى أيضًا يعيش فيه الفرد، وتعيش فيه الجماعة على رضا واطمئنان فى حالة الأمن، وعلى أمل بالرضا والاطمئنان المقبلين فى حالة البأس والشدة [١].

وقد عاش النصارى كذلك حياة طيبة تحت ظل الشريعة والحكم العثمانى، وما شكوا شيئًا فى الدولة لا فى أيام الرخاء ولا فى أيام الشدة؛ ففى أيام الرخاء كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق، ثم يزيدون فى أحيان كثيرة فى الامتيازات على المسلمين، ولقد كان النصارى واليهود فى الإمبراطورية العثمانية ملوك الاقتصاد والتجارة، وكان على المسلم أن يقوم بالخدمة العسكرية يقضى فيها السنين الطوال، وربما مات فى حملة من الحملات على اليمن أو فى معركة من المعارك مع الروس، فإذا أراد المسلم أن يعفى من الخدمة، فكان عليه أن يدفع البدل العسكرى (خمسين ليرة عثمانية ذهبًا) مرة أو مرتين أو أكثر، يقضى جانبًا كبيراً من العمر فى تحصيله وجمعه، فيمنعه ذلك كثيراً مما يريد من العلم والزواج، والعمل المنتج، أما غير المسلم فكان معفيّا من الخدمة العسكرية[٢] - لأسباب كثيرة أيضًا - !!

ولأن الدولة العثمانية كانت - كما ذكرنا - دولة جهاد؛ فقد كان من طبيعة الأشياء أن تكون التنظيمات قائمة فى الدولة على مضمون الجهاد فى سبيل الله[٣]. ولم يكن غريبًا أن تكون الصفة الملازمة لاسم السلطان العثمانى هى صفة (الغازى)[٤] . . . وكانت الشريعة تحكم مجتمعًا جادًا لم تتفش فيه صور التحلل والابتذال والانحلال الأخلاقى؛ التى عرفت فى بعض المجتمعات.

---

(١) عمر فروخ : مرجع سابق، ص: ٢٨٢ .
(٢) المرجع السابق.
(٣) بسام العسلى: سليمان القانونى، ص: ٨، دار النفائس - بيروت، ط/ ١، (١٤٠٦هـ).
(٤) المرجع السابق، ص: ٧ .

لقد كانت أوروبا النصرانية بدولها المختلفة تقف فى وجه الدولة العثمانية المسلمة، وتحرض على إخراجها من أوروبا الشرقية، واقتطاع أجزائها، وإذا كانت دول أوروبا تختلف فيما بينها، ويتناقض بعضها مع بعض؛ فى سبيل امتداد نفوذها، واقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية، وأخذها الخيرات والأسلاب؛ إلا أنها كانت تنسى كل خلافاتها وتتفق فى وقوفها فى وجه العثمانيين [(١)] .

وقد حاول السلطان العظيم (عبد الحميد) فى مستهل القرن العشرين للميلاد (١٢٩٣/ ١٣٢٦هـ) أن يقوم بعدد كبير من الإصلاحات، ورفع شعار (يا مسلمى العالم اتحدوا)، وأقام سكة حديد الحجاز، وحاول تحريك الأمة علميّا، وجمع العلماء حوله . . . لولا أن القوى العالمية وقفت ضده .

ومع ذلك كله، فثمة ملاحظة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند تقويم العثمانيين، بالإضافة إلى الملاحظة الخاصة بطبيعتهم العسكرية؛ نتيجة ظهورهم فى عصور هجوم أوروبى على العالم الإسلامى، بعد سقوط الأندلس، واضطرارهم للتصدى للحروب الصليبية، والدفاع عن العالم الإسلامى . . . هذه الملاحظة (الجديدة) هى أن العثمانيين وإن كانوا قد نجحوا نجاحًا رائعًا فى رفع راية الإسلام عالية فى الدنيا، وألقوا مهابته فى نفوس العالم؛ بهزائمهم لأوروبا مرارًا لثلاثة قرون منذ قيام دولتهم؛ إلا أنهم كانوا هم كذلك يسيرون فى طريق الانحطاط كعامة الأمم المسلمة فى هذا الزمان، بينما الأمم الأوروبية التى تقابل الأمة التركية فى الميدان، والتى عاصرتهم؛ كانت تسير فى طريق الرقى المادى والتقدم الفكرى، وفى القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) انقلبت الأحوال، فقد بلغ من إحكام التنظيم العسكرى، وتضاعف القوة المادية والمعنوية عند أمم الإفرنج أنها هزمت الأتراك المتخلفين هزيمة بينة لأول مرة فى معركة سينت جوثرد [(٢)] .

---

(١) إسماعيل ياغى، ومحمود شاكر : مرجع سابق، ص: ١٥٣ .

(٢) أبو الأعلى المودودى: نحن والحضارة الغربية، ص: ١١٠، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ويطلق على المعركة (سان جوتار) فى الترجمة العربية .



هكذا كان الموقعان مختلفين، والظرفان مختلفين، ومع ذلك قام العثمانيون بدورهم على خير ما استطاعوا، وقد قدموا صفحة استمرت خمسة قرون دفاعًا عن الإسلام وشريعته وحضارته . . . ولو لم يكن العثمانيون لاستطاعت أوروبا احتلال العالم الإسلامى فى وقت مبكر، ولكان مصير كثير من الدول الإسلامية لا يعلمه إلا الله . . . وما فعلته فرنسا فى الجزائر خلال مدة تزيد على مائة وثلاثين عامًا دليل على نوعية ذلك المصير الذى كان ينتظر المسلمين، لولا أن قيض الله العثمانيين جزاهم الله خيراً .

* * *







تاريخنا وحضارتنا... من التفسيرات الإسقاطية إلى التوظيف الحضارى

- بعيدًا عن الإسقاطات والتفسيرات التحريفية لتاريخنا . . . يجب أن نلتفت إلى ضرورة توظيف تاريخنا الحضارى فى خدمة واقعنا واستشرافاتنا المستقبلية . . .

- إننا لن نعيش فى (جنة) الماضى غافلين عن المستقبل ؛ بل سندرس كل تاريخنا البشرى - بإيجابياته وسلبياته - . . . لنستفيد من تجارب الإيجاب والسلب معًا . . . وهذا هو المنهج القرآنى فى فقه التاريخ . . . وكل الأمم الناهضة من حولنا تجعل من تاريخها ذاكرة تستلهمها . . . فلسنا بدعًا فى ذلك ! !

ومنذ وعى الإنسان معانى التاريخ والحضارة والحكمة (الفلسفية)، وهو يوجه الوقائع التاريخية لخدمة عقائده وأفكاره، ويفسرها تفسيرًا يحدد لها إطار مستقبله فى ضوء الثوابت والخلفيات ؛ التى ورثها وآمن بها وترسبت فى وعيه التاريخى .

- وشيئًا فشيئًا حاول الإنسان غربلة بعض أفكاره، والوصول إلى قدر من الموضوعية، يتلاءم مع المنطق والعقل، وفى أحيان كثيرة اضطر إلى تفسير أفكاره وعقائده تفسيرًا يحاول أن ينسجم مع المنطق، ومع الموروث والمعتقد فى نسيج واحد ! !

- ومهما وضع اليهود والنصارى من لافتات علمية وموضوعية، فمن المؤكد أنهم قد تأثروا بعقائدهم تأثرًا كبيرًا ومباشرًا فى تفسيرهم للتاريخ وتقسيمهم لمراحله .



ـ وقد بدأ النصارى تاريخهم وتنظيرهم بما بدأت به التوراة، فرجعوا إلى (الجنة) التى عاش فيها آدم وحواء قبل هبوطهما على الأرض، وقسموا التاريخ إلى قسمين رئيسين هما :

ـ المرحلة التى سبقت خروج آدم من الجنة، والمرحلة التى أعقبت ذلك الخروج ! ! وبالمثل فإن اليهود قد استخدموا وقائع طردهم من القدس ؛ أساسًا لتاريخهم وترتيبهم الزمنى للأحداث .

ـ أما الإغريق فأتوا بفكرة مماثلة، وهى فكرة اضمحلالهم بعد أن كانوا فى عصر ذهبى، وقسم أحدهم عصور التاريخ إلى خمسة أقسام هى : الذهبى، والفضى، والبرونزى، وعصر الأبطال، والعصر الحديدى . أما الآباء المسيحيون الأول فقد جعلوا العصر الذهبى قرينًا بالعصر الذى عاش فيه الإنسان فى الجنة، ثم ما تبعه من وقوع الخطيئة[1] . . .

ـ وجاء مؤرخو العصور الوسطى (الأوروبية) فتأثروا بهذه التقسيمات، وصاغوها صياغات أخرى، واعتبروا العصر الوسيط استمرارًا للإمبراطورية الرومانية، واعتبر المؤرخ (بلوندوس) (١٤٦٣م) أن العصور الوسطى حقبة انفصلت فيها شعوب أوروبا الغربية عن روما، ثم جاء المؤرخ الهولندى (كرستوف كيلر) بتقسيم عصور التاريخ إلى أقسامه التقليدية الثلاثة المشبعة بالروح الكنسية ؛ وهى التاريخ القديم الذى ينتهى بعصر قسطنطين العظيم، والتاريخ الوسيط الذى ينتهى بسقوط القسطنطينية سنة (١٤٥٣م)، ثم التاريخ الحديث من سنة (١٤٥٣م) فصاعدا[2] .

ـ وكان ظهور «مارتن لوثر» عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ ؛ بل إن حركة الإصلاح الدينى بقيادة (كالفن) و(لوثر) أعطت الجهد البشرى فى تفسير

---

(١) هارى المربانز : تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة : محمد عبد الرحمن برج ١/ ٣٢، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة (١٩٨٤م).
(٢) المرجع السابق ١/ ٣٣.





التاريخ تقديراً أقل مما أعطته له الكنيسة فى سالف عهدها، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية، والمنظمات التابعة لها هى صاحبة المقام الأكبر والأول فى مقام البحث التاريخى؛ بل إن التاريخ العالمى صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان [١].

- ومع نهاية العصور الوسطى المسيحية، وبداية عصر الكشوفات الجغرافية، وخروج الأوروپيين فى حركتهم التوسعية الاستعمارية، وانتشارهم فى البحار وعلى اليابسة، وتعرّفهم على الكرة الأرضية، ومحاولتهم السيطرة عليها لحسابهم الخاص ـ دون نظر إلى الحضارة الإنسانية العامة ومصلحة البشر ـ . . . فى هذا الوقت نفسه الذى ذهب فيه (ماجلان وكولومبس وفاسكو دى جاما) يكتشفون العالم، وكان هناك آخرون من أمثال (برونوكوبر ينكس وجاليليو وكبلر ونيوتن)؛ يكتشفون خصائص النظام الكونى، وحركة الكواكب، واستطاع كل من (بيكون وديكارت وجون لوك) أن ينظموا مغزى الاكتشافات العالمية فى فكر فلسفى مستقيم . . . فى هذا الوقت ظهر مؤرخون يحاولون أن يقدموا تفسيراً اجتماعيّا، يتساوق مع الاكتشافات الجغرافية الكونية، وتألقت فكرة (تطور المجتمع) تطوراً منتظمًا، شأنه فى ذلك شأن الطبيعة، وكان أبطال هذا التوظيف توظيفًا يتساوق مع الاكتشافات الأوروپية هم: (فيكو وهيوم وفولتير وكانط وجودوين وكندورسيه).

- وقد ظهر تأثير هذه الفلسفة الطبيعية ـ وكذلك ردّ فعل الفلسفة الاجتماعية ـ على كتابات التاريخ فى كتابات المدرسة العقلانية للمؤرخين فى القرن الثامن عشر؛ وأهم ما جاءت به هذه المدرسة هو اتجاهها العام نحو توسيع التاريخ، بحيث يتعدّى نطاق الكنيسة والدولة ويشمل تاريخ المجتمع والتجارة والصناعة والحضارة فى أوسع معانيها [٢].

---

(١) المرجع السابق ص: ١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٢) المرجع السابق ١/ ٢١٠ ـ ٢١٢ بتصرف.





ـ ولم تنج فلسفة التاريخ من التوظيف، فهى مثل منهج البحث التاريخى تعرضت منذ نشأتها للتوجيه الفكرى والقومى والعقائدى، فالمؤرخون المسيحيون ـ بدءاً من (إيزيبوس) حتى (بوسويه) ـ كانت لهم فلسفة تاريخية قائمة على المسيحية، وكان (فيكو) يمثل المرحلة الرومانسية فى كثير من النواحى، ولا سيما فكرته عن التغيرات التى تطرأ على الروح الاجتماعية، وفكرته عن يد الله فى صنع أحداث التاريخ، وكان يرى أن التقدم يتم على شكل دائرى حلزونى، وقد قسم مراحل التطور التاريخى إلى ثلاث مراحل رئيسة وهى : الإلهية والبطولية والإنسانية(١).

أما المدرسة الألمانية وعلى رأسها (هرد، وعما نويل كانط، وفيخته)، فقد ظهر واضحًا إيمانها بالعنصر الألمانى، وبالواقعية التى يمتاز بها هذا العنصر، وبالحصيلة الديناميكية للدوافع الشخصية، ونتاج العمل والتزاوج بين الظروف الخارجية والروح الداخلية، وقد قال (فيخته) بصراحة فى كتابه (رسائل إلى الأمة الألمانية) (سنة ١٨٠٧م) : «إن الأمل فى المستقبل معقود على الشعوب الألمانية، فهذه الشعوب مكونة من عنصر نقى، غير مختلط، له معين لا ينضب من الحياة الروحية ومن القوة» (٢).

ولئن كانت هناك روابط مشتركة باعتبار عوامل التأثير والتأثر بين البلاد الأوروبية ذات التفاعل الحضارى المتقارب، إلا أن التوظيف القومى والوطنى والمذهبى كان واضحًا فى كل هذه المدارس، وحتى عندما جاءت الفلسفة المادية الماركسية، فإنها قامت بتوظيف التاريخ وفلسفته للفكرة الأيديولوجية المسبقة، وأرغمت الحقائق التاريخية على أن تكون فى خدمة الطبقة العاملة والصراع الطبقى، وسيادة طبقة البروليتاريا، وسقوط الرأسمالية أمام معاول الشيوعية، كما وظّفته لخدمة الحرب على كل الأديان، وإعلاء راية الإلحاد، ثم جاء أرنولد توينبى ليقدم تفسيراً أكثر (تفاؤلية) و (لاهوتية)؛ يواجه به التفسير المادى، فكان

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٢٦، ٢٦٧، ٢٦٨، بتصرف.
(٢) المكان السابق.





تاريخه سلاحًا فى يد الكتلة الغربية الليبرالية واجهت به فى أشد ساعات المحنة انتشار الفلسفة المادية الماركسية، التى خضع لها ذات يوم مئات الملايين من البشر.

أما (أزوالد شبنجلر) الذى يظنه البعض أكثر حيادًا بالنسبة لآرائه فى فلسفة التاريخ؛ حيث أعلن (اضمحلال الغرب، وسقوط الحضارة الغربية)، وأظهر تشاؤمه من المستقبل، وذكر أن الحضارة تمر بدورة حلزونية رباعية؛ هى الربيع والصيف والخريف والشتاء، وأكد أن الحضارة الأوروپية تمر الآن بشتائها القاسى!!

- ومع ذلك كان (شبنجلر) أوروپيًا مخلصًا فى الحقيقة، لكن إخلاصه - وهو يوظف فلسفة التاريخ لحضارته - كان مثل توينبى... إنه إخلاص الطبيب الصادق للمريض فى مرحلة لا تحتمل الحلول العاطفية!!

وبعد شبنجلر سار فلاسفة آخرون أوروپيون على المنهج نفسه فى توظيف التاريخ وتفسيره لخدمة الحضارة الأوروپية والرؤية النصرانية أو العلمانية للتاريخ!!

* * *

وهكذا، ومن خلال هذا العرض، يتجلى لنا أنه منذ خمسة قرون - على الأقل - والبحث عن المنهج التاريخى الأصلح لكتابة التاريخ الإنسانى وفلسفة التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين فى العالم مكانة عظيمة، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا... وبالطبع ليس لنا فى هذا المقام أن نتجاهل دور العلامة عبد الرحمن بن خلدون فى إيقاظ هذا الوعى التاريخى على المستوى العالمى كله.

ويعد العالمُ الإسلامى - مع ذلك وللأسف - نشازًا فى هذا البحث اللاهث، فما زال البحث التاريخى لا يهتم - إلا فى القليل - بقضيتى منهج البحث التاريخى وفلسفة التاريخ، فضلاً على التوظيف لتجربتنا الحضارية فى مراجعة مشكلات الواقع وأعباء المستقبل.



والنظر إلى قائمة الطروحات العلمية التى قدمت فى جامعات العالم الإسلامى فى أقسام التاريخ والحضارة، بالإضافة إلى بحوث المؤرخين والمفكرين يُؤكد هذه الحقيقة !!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمق؛ بعد أن بطلت مقولة إقامة السور الحديدى الفكرى بيننا وبين العالم الأوروبى؛ لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه، فضلاً على عبثية هذه المقولة فى ظل الأساليب الحضارية المعاصرة؛ فإنها أيضًا مقولة لا تخدمنا حتى ولو نجحنا فى تطبيقها !!

إننا لا بد أن نبحث فى بنائنا الداخلى، وفى تطوير كياننا، وفى البحث عن وسائل القوة فى داخلنا ومن خارجنا، وفى فقه سنن الله الكونية والاجتماعية فى التطور والبقاء، ولا سبيل لبقائنا فى هذا العالم إلا عن هذا الطريق.

إنّ تشريحًا قويًا يجب أن نقوم به - بإخلاص وجرأة - لتجربتنا فى التاريخ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا فى الاعتراف بالحقيقة كما هى، وفى تقويم هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهية التى نؤمن بأنها (المطلق)، و(المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية.

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكنًا كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره، وذلك أن المنهج العلمى لكتابة التاريخ يُحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلاً) وقبولها دراية (عقلاً) (١).

وقد أصبح (فقه البيئة) الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة، والحكم عليها منذ عصر ابن خلدون، ومهما كان لتفسير التاريخ من كيان مستقل؛ فإن أجزاء كثيرة منه على الأقل - فى معطياته الأولى - ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تنفصل عنها. . . (٢).

---

(١) يضرب الدكتور الجابرى مثلاً يستدل على استحالة إخضاع القرآن للدراسة التأويلية التطويرية لثبوت نسبته لله بخلاف غيره من الكتب؛ ذلك أن الصحابة المتقاتلين (جميعًا) فى صفين أجمعوا على الخضوع للمصحف الذى رفعه أنصار معاوية، فنسبة القرآن لله لا يرقى إليها شك.

(٢) لكل عصر مناخه (أخلاقياته) وعاداته السائدة، فجيل كجيل الصحابة (رضوان الله عليهم) لا يمكن أن يتواطئوا على نص للرسول (عليه الصلاة والسلام)، وهم الذين كانوا يبيعون الدنيا من أجل الدفاع عن دين الله، وهم يعلمون أن النار مصير من يكذب على الرسول ﷺ (!!).

إن هذه مسلَّمة أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلاً ! !

وفى ضوء هذا البحث الإنسانى الدؤوب عن تفسير إنسانى موضوعى للتاريخ ؛ يتبدَّى لنا أنه من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولاً إلى بعض المفاتيح ـ وليس كل المفاتيح ـ لحركة التاريخ والكون .

وفى الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا ـ إنصافًا لرسالتهم وحضارتهم ـ بجهودهم فى مجال الوصول إلى فلسفة كونية وتاريخية أصيلة ، تقوم على ركائز التصور الإسلامى الأساسى . . .

ولعلَّ أهم ما يميز الرؤية الإسلامية للتاريخ ويوجبها ؛ أن لها ثوابت تتصل بالقوانين والسنن الكونية التى لا تتغير ، وتتصل بالفطرة الإنسانية المركوزة فى الإنسان ، والتى لا تتغير هى كذلك ، وإن اختلفت وسائل التعبير عنها . . . ويعدّ تشويه الفطرة اعتداءً على (إنسانية الإنسان) . . .

وأهم فرق بين التصور الإسلامى والتصورات الوضعية التى لا ترى علمية تفسير التاريخ ؛ أن الإسلام يؤمن بثوابت فطرية مركوزة فى الإنسان لا تتغير . . . وهؤلاء يرون أن الإنسان يتطور فى بنائه الأساسى العضوى والنفسى والقيمى . . .

ويرى التصور الإسلامى أن الجانب المعرفى والفكرى يتطور فى الإنسان ؛ لكن ذلك أيضًا يحتاج إلى ضوابط وعناصر تكمله ؛ فثمة معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها ـ نقلاً ـ لا عقلاً ، وهو ـ بطبيعته ذات الطاقة المحدودة ـ عاجز عن إدراك تفصيلاتها بعقله . . . وثمة مسلمات فى الجانب المعرفى الكونى والاجتماعى يجب التسليم بها . . .

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعلم العقل فى مساحة واسعة تنتظم تسخير الكون ، ومجالات العلوم والفنون والآداب ، وفقه النفس الإنسانية والطاقات الإنسانية المختلفة ، وفى استكشاف عظمة الله من خلال تدبر آياته فى الكون والنفس ، وبالتالى استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية .

إن قراءة تاريخنا، وتاريخ الإنسانية بكل معطياته وشرائحه عملية ضرورية لكتابته كتابة موضوعية . . .

وقراءة التاريخ لا تَعْنى قراءة الجوانب السياسية، وحياة الحكام، وأخبار الوقائع والحروب؛ فتلك قراءة قد استهلكت، وأخذت أكثر من حجمها، وامتدت على حساب غيرها، وأعمتنا عن قراءة تاريخنا وتاريخ الإنسانية الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . . . ومن شأن قراءة عاجزة كهذه ألا تصل بنا إلى اكتشاف السنن الفاعلة والعوامل المتحركة.

- إن تاريخنا ليس فردًا فى هذا المجال . . . فمعظم تواريخ العالم - إن لم يكن كلها - يشوبها سلوك معظم حكامها وعسكرييها، أباطرة كانوا أو قياصرة أو أكاسرة أو ملوكًا [1] . . .

- فكيف يُصبح هؤلاء محور الدراسة التاريخية والحضارية، مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلب فيها . . . ؟!

- وإن عظمة كثير من الحضارات - وعلى رأسها الحضارة الإسلامية - أنها بقيت مصونة الجوهر، بالرغم من الفساد الذى يجلبه هؤلاء !!

- وأخيرًا . . . فإننا عندما نتجه - عمليًا وبصورة جماعية - للبحث فى أساسيات هذا التفسير، فإن علينا أن نعيد قراءة حولياتنا التاريخية، وموسوعاتنا الحضارية، وكتب الفقه والأدب والرجال والطبقات، باذلين معظم الجهد فى التعرف على حياتنا الحضارية؛ التى تقوم على قضايا العقيدة والفكر والثقافة والعلم - أولاً - وعلى النشاط الاجتماعى - ثانيًا - والنشاط السياسى والعسكرى - ثالثًا - !!!

- ومن الواجب أن نصهر كل هذه الجوانب أو العناصر فى بوتقة واحدة؛ لأن الفعل الحضارى يتأثر بالبيئة كلها، مراعين - فى الوقت نفسه - النسبة المحدَّدة لكل

---

(١) ومع قولنا هذا فنحن لا نسلِّم بالمقولات الشائعة الباطلة عن كثير من حكام الخلافات والدول الإسلامية، وندعو إلى دراستهم دراسة موضوعية منصفة . . . وسوف نكتشف جديدًا وعجيبًا!!!

نشاط، وأثره فى الحضارة، ومراعين - أيضًا - ترتيب العناصر وفق أولوياتها والنسب المحددة لها.

إن المنهج الصحيح للتعرف على المجتمع الإسلامى، يقتضى التعرف على الأسس الفكرية، والضوابط الأخلاقية، والنظم المالية والقضائية والتجارية والسياسية، وأهم المؤسسات وعلى رأسها المسجد، ودور العلم ومقرراتها ومناهجها والقيم الموجهة لها، ومقاصدها التربوية... ومدى فاعلية كل ذلك في حركة الحضارة.

كما يقتضى رصد حركة أو سلوك الشعب فى الأسواق، وفى الزراعة والتجارة والصناعة، وفى حركة الجهاد المنظم، أو التطوعى (المطوعة والمرابطين)... ويقتضى أيضًا مراقبة نوع حياتهم فى المواسم المختلفة، عبادية أو ترويحية عبادية، مثل حياتهم فى رمضان، والتزامهم بصيامه، وقيام ليله، ومثل سلوكهم فى موسم الحج إن حجوا، أو تفاعلهم معه إذا لم يحجوا، وسلوكهم فى الأعياد الإسلامية: يوم الجمعة، وعيد الفطر، وعيد الأضحى... ومناسبات الزواج، والولادة (العقيقة)، والأضاحى... وغيرها





